شبكة روايتي الثقافية

www.rewity.com

الفصل الأول

فى طقس قارس تكاد تتجمد فيه أوصالى لفظتنى القاهرة كعلقة كائن غريب يأبى أن يلتصق بجدار رحمها المتهّرأ.. رأيتها كإمرأة عجوز لا تتغير ، لاأمل لها فى أن تنجب فى أيام البرد .

وزحفت خارجا من ضجيجها الذى تتوارى خلفه ، أرى أشباحا بائسة ترتسم على وجوهها قسمات يوم غريب بارد هرب مما يُعرف عنها من شتاء دافئ . ولكننى تعلمت أشياءاً بسيطة مما تعلمتها ، فقد حرصت أن تكون ملابسى ثقيلة مع هذا الطقس قارس البرودة و لكنها لم تُجدنى، إذ أحسست بالبرد يخترق كل ملابسى ويصل إلى عظامى.. أسرعت الخطى إلى القطار لألتمس بعضا من الدفء .. كم يبحث عن مدفأة يلوذ بها .. وأخيرا وصلت إلى المحطة بعد معاناة للخروج من أحشاء القاهرة . أُمنِّى نفسى بالتكوّر فى مقعدى لاصقا بين فخذىّ أو واضعا إحديهما على الآخر طلبا للدفء الذاتى وربما وضعت يديا فى جيبى ..

تلك كانت هى الرحلة الأخيرة لى فى نهاية ديسمبر الماضى عائدا من القاهرة الى الإسكندرية ، لكنها كانت غير المرات السابقة ..

لا أدرى لماذا تذكرت " أحدهم " .. قال لى ذات مرة أنه لم يركب فى حياته قطاراً قط ، وأمنيته أن يسافر به و لو مرة .. وتذكرت أغنية يحبها .. عن القطار الذى يسافر الساعة الثانية عشرة لحبيبه الغائب .. كان يغنيها " يدندن بها " لنفسه .. وكنت لم أسمع بالأغنية .. ثم عرفت كلماتها مؤخراً .. وعرفت لماذا يحبها...

اما انا فلا أسافر دائما إلا به .. إلاّ ما اضطررت إليه

صعدت وبيدى حقيبتى الصغيرة .. لا أسافر بكبيرة أبدا .. لا أحب المبيت بالقاهرة... أخرج منها فأشعر أننى نجوت بنفسى من بين أنياب وحش يسكنها .. ينتظر زوارها فى مربضه السرى ليلتهمهم ، ويقتات بأحلامهم ، ثم يلقى بأشلائهم الباقية .. ليجمعونها ويحملونها على ظهورهم وهم عائدون لمدنهم البعيدة ...

إنطلقت صافرة القطار تؤذن بقرب رحيله معلنة سفره .. أخرجت من جيبى تذكرتى حتى إذا ما رأها مفتش القطار وضعتها فى يديه ، وضمنت ألا يوقظنى أحد إذا نمت ، فلا أخشَ على راحتى من إزعاج .. وأضمن ألا أصحو إلا فى محطتى كعادتى مع السفر بالقطار .. سابحاً فى ملكوت الله .. استقبل عالما سحريا أستغرق فيه ..

تذكرت ضمن مرات سفرى العديدة عودة من عهد قريب .. شهدت ميلاد قصة ولدت فكرتها في القطار وشرعت في كتابتها فيه أثناء تلك الرحلة مصطحبا أحد المقربين لى من الناجين من براثن القاهرة من جيله ممن إختطفتهم القاهرة .. فاحتضنته الإسكندرية كأم رؤوم يكتب فيها وعنها ويقرأ القلوب كما يقرأ الوجوه .. و لإكتسبه انا .. والآحاد أصبحوا قليلين .. نلتقى بهم .. ثم نفترق عنهم .. دون أن نخسر أنفسنا لنطعمها لوحش القاهرة .. ولم أفقد هذا الأديب الناجى .. كما لم أفقد من يوصينى عليه ثالثنا المفكر الزاهد ...

مرت صورته فى مخيلتى .. و ابتسمت .. تذكرت وجهه الطفولى وشعره الاشيّب الجميل .. وبطنه التى ترقص مهتزة حينما يضحك .. وتذكرت نومته على كتفىّ مستغرقا كطفل لم ينم من شهر ، حتى ضجَّ الركاب من حولى من صوت غطيطه فى نومه ، ومع ذلك لم أشأ إيقاظه .. و كتبت القصة على أنغام تلك "السيمفونية " المضحكة وعلى تعليقات الناس من حولنا .... و رغم هذا الجو الكوميدى إلا انها كانت قصة حزينة تلقى فتاة فى نهايتها مصرعها .. و لست أدرى

لماذا جاءت القصه حزينة هكذا . .. و لما إستيقظ كان أول قارئ لها كقارئ للوجه باسم رواية له ..

ولا أعرف أيضا لماذا تذكرت فى هذه اللحظة معظم ما كُتب عن القطارات فى الأدب ، وأنى لم أكتب شيئا عن القطارات و ما يدور فيها رغم كثرة أسفارى المشحونة بكل شئ .. بأمنيات من يودون ركوبها ، أو آمال الذين يريدون الهروب منها، و مناظر المتشردين الذين يعيشون فى محطاتها و تحت كباريها بلا مأوى .. و من يموتون فيها محترقين إثر كوارث و حوادث تصادم مؤلمة و مروعة....

القطار مصدر قوي التأثير و عنصر من عناصر التشويق .. لعب دورا كبيرا وعظيما في حياة الكثير من الأدباء و الشعراء و الفلاسفة و الكتاب .. القطار كان مرتعا لهم .

و الإلهام في الحقيقة حالة لا نعرف عنها شيئا ولا نعرف لها تفسيرا .. فلماذا إذن لم يزرنى هذا الإلهام أو يأتنى إلا تلك المرة اليتيمة و الوحيدة .. قلت لنفسى ربما كتبت يوما قصة آسرة عمن أخبرنى أنه يتمنى أن يركب قطاراً فيكون القطار موسعا لحدود المخيلة ، فادخل بقصته مع من حاول سرد التساؤلات الفلسفية حول الحياة و الموت و الوجود و الهوية من مختلف زوايا رؤيتها بسرد جميل .. ساحر و عميق فى القطار ..

و تمتمت :

" إذا لم تتمكن من شئ فاتركه .. فسوف تأتى به الأقدار .. فتجاوز ما لا تستطيعه إلى ما تستطيعه!!"

انتبهت من التداعيات التى تركض في ذاكرتى ركضا وكأنها على موعد لتستيقظ على صوت تحرك القطار . صعد كل ركاب القطار فيما عدا هذه المرأة التى يعلو رأسها غطاءاً أسوداً .. تبدو فى نهاية العقد الثالث من عمرها و قد وصلت متأخرة و ظلت واقفة فى الردهة الفاصلة بين العربتين الأولى و الثانية أمام الباب ربما لتلتقط أنفاسها الضائعة من العدو حتى لحقت بالقطار فى آخر لحظة قبل أن يتركها راحلاً ..

تطلعت بطرف عينيى إلي النافذة التي عكست ضوء الشمس المتذبذب ليطلّ وجهها البريء خلف الزجاج كالسراج .. وجه باسم و عينين تخفيهما خلف نظارة شمسية سوداء زادتها جمالا آخاذاً بصورة غير عادية.. بلونها الداكن مع وجهها المزهر حتى خُيِّل الىّ أنها تضعها عن عمد و قد تناثرت خصلات من شعرها البنى الداكن تحت الوشاح الأسود ، متدثرةً بمعطف جلدى أسود واسع فضفاض يغطى تحته رداءاً زيتونياً مطرزاً بخيوط ذهبية .. رداءاً جميلاً لن أنساه أبدا ...

عاودت الصافرة إنطلاقها من جديد مع تحرك القطار وزيادة سرعته لتعلن إنفكاكه من قبضة القاهرة .. كسفينة تمخر عباب نهر عريض ، وترمى وراءها تلك المدينة الصاخبة فى إنسيابية .. و رحت استقبل عالما سحريا جديدا من عوالمى لأستغرق فيه .. مرة كمحيط فسيح لا موج فيه .. و أخرى أراه كصحراء مترامية الأطراف ..

أو كغابة من أشجار السنديان أو الكافور يشق طريقه بين أشجارها الباسقة ... أو يحتضنى ليل ممتد السكون إلى مدى يخبو فيه قطارى بعيدا في سكون لا يقطعه سوى صوت صافرات آتية من بعيد أو عندما يمرق قطار آخر فجأة كالسهم و أنا أحدّق في نجوم السماء المتلألأة حتى يصل قطارى المجهد الى محطته الأخيرة ..

أشعر بدفء غريب يسرى فى أوصالى ، وطمأنينة تغزو نفسى .. ربما لذلك أحب السفر بالقطار .. لهذه العوالم التى لا تظهر إلا معه .. و لا تغيب عن ذاكرتى أول رحلة لى فيه مع والدى وأنا طفل صغير .. وقفت طوالها و لم أجلس ، و التصقت بالنافذة الخشبية محدقا حتى لا يفوتنى شئ و لا أراه .. كم أطربتنى تلك الرحلة الأولى و أدخلت السرور و الفرحة على قلب طفل صغير ذاهب إلى الريف ليقضى بضعة أيام مع جدته من أبيه ، فى إجازته الصيفية ..

تسارعت صور الوقوف و السائرين على رصيف المحطة من الخارج تأخذ بناظرى من جانب مقعدى بجوار النافذة الزجاجية .. ومن حسن الحظ أنه فى صف بعيد عن الباب الفاصل فزدت إطمئنانا أننى لن يزعجنى صوت فتحه وغلقه من العابرين .. فربما أقرأ فإذا لم يحالفنى مزاجى الحاد فى القراءة أخذتنى غفوة أو وسن ، فلى طقوس خاصة فى القراءة قد لاتتوفر فى القطار ، فلابد أن اشعر بالدفء حتى أقرأ . ولهذا السبب فأحيانا لا أقرأ إلا و أنا فى الفراش .. وخاصة أيام الشتاء .. لا أبحر فيما أقرأ إلا هكذا . و ربما تكوّرت آخذاً الكتاب تحت ناظرىّ بين ذراعى أحتضنه كوليد يحتاج للدفء .

و أُفضّل هذا القطار لإنه يرحم الراكب من الباعة الجائلة من كل لون كما فى قطارات الصحافة والدرجة الثالثة . أتذكر نداءاتهم العجيبة على الصحف والمجلات فتشتريها فتجد أنها صادرة من أشهر .. وهذا بائع الشاى و آخر " للسندويتشات " وترى العجب فى طنطا و تتوقع أن تصل فى ثلاث ساعات على الأكثر فتصل بعد أسبوع بعد عشرات المحطات .. أجبرت على أن أستقل مثل هذا القطار مرة ولكنها كانت كافية للأبد .. وخير الأمور الوسط .. و الأهم أن قطارى هذا لا يقف إلا فى الإسكندرية ..

جاءنى صوت المفتش الذى يتفقد الركاب مقتربا من مقعدى مكررا لكلمة واحدة "تذاكر .. تذاكر " فيبرز كل راكب تذكرته كأنها بطاقة هويته .. يواجههم ببسمة ووجه أسمر بشوش ينتصفه هذا الشارب الأبيض الجميل ... وزيّه الرمادى .. وجه لايمكن أن تراه ولا تحبه ..

مازالت المرأة الجميلة واقفة هناك خلف الباب أراها عبر زجاجه حتى عبرته بوقار متوجهة إلى عربتى حاملة حقيبة يد صغيرة .. و تحمل باليد الأخرى تذكرتها متفقدة أرقام المقاعد الملصقة باحثة عن مقعدها ، حتى توقفت عند الصف الذى أمامى .. فوجدت أن راكبا آخراً قد استحوذ على مقعدها ..

وعلى الرغم من خطواتها القليلة التى رأيتها إلا أننى تبيّنت مشيتها رافعة رأسها منتصبة الكتفين كفرس يتهادى ..

تساءلت متعجبا .. لماذا تعلق نظرى بهذه المرأة الغريبة و قد تهلل وجهها لرؤية ذلك المقعد الذى يغنيها عن الوقوف طوال مدة السفر و لم أستطع رؤية الجالس مكانها إلا من مؤخرة رأسه الصلعاء تلمع تحت أشعة الشمس التى تتسرب من النافذة الزجاجية فى الجهة المقابلة .. ربما وضع عليها شيئا مرطبا ولكنها على أية حال تنتصب على جسد بدين يخرج من جنبىّ المقعد يكاد يعوق حركة المارين فى الممر .. انتبهت على صوت الواقفة سائلة الجالس إن كان يسمح لها بالقيام لتجلس ؟؟ ..

- هذا مقعدى أنظر هذه تذكرتى وبها رقمه ..

- بل هو مقعدى أنظرى فهاهى تذكرتى كذلك وبها رقمه ورقم العربة

- اذهبى للعربة الأخرى التي تلينا ربما كان بها مقعدك ..

- يا أستاذ إنه مقعدى أُنظر ..

- بل مقعدى أنا ..

ارتفع صوتهما فقام الرجل المجاور بأدب :

" اعطنى التذكرة من فضلك .. نعم رقم المقعد سليم وكذلك العربة .. وأنت كذلك إنها مشكلة حقا .."

لم يحلّ المشكلة بينهما إلا وصول مفتش القطار ألحت علىّ فكرة غريبة وبات الأمر مفروغا منه فعلا فقد هممت أن أقوم للمرأة لأعطيها مقعدى و أقضى رحلتى فى عربة " البوفيه"..

- يوجد مقعد فارغ فى العربة السابقة هل لأحدكما أن يذهب معى إليه ؟

تطوع الرجل الثانى للذهاب فقد كانت المرأة مصِّرة على المقعد و كذلك الرجل السمين الذى رفض القيام لها ..

لم نستمتع بالهدوء طويلا فسرعان ما احتدم الجدل بينهما مرة أخرى بسبب تجاوز الرجل لمقعده بكتلة اللحم زائدة عن جثته الضخمة تضغط على المرأة فلا تستطيع حراكاً فى جلستها غير المريحة تلك فسوف تظل محشورة طوال الرحلة .. وساد الركاب من حولهما الصمت و كأنهم قد وجدوا مايتسلون به و يقطعون به ملل الرحلة .. لم يعبأوا أو يكترثوا بهذه المشادة بين راكبين أحدهما جالسا فى هذا البرد لا يريد أن ينتزعه أحد من دفئه ..

ارتفع صوت الرجل و تطاول عليها و هى مُصّرّة بهدوء و بصوت حاد النبرة على أن يلتزم بحدود مقعده .. وكان من الواضح أن تلك المشكلة لن تنحل كسابقتها بالمرة فأين و كيف سيضع تلك الزيادة عن جسده؟!

وما زال الطريق أمامنا طويلا .. و أخذت قرارى هذه المرة فقمت من جلستى المريحة و توجهت للرجل وقد أطمعته لما رأيت منه من صفاقة وجرأة ..

- هل تسمح بأن تأخذ مكانى المريح بجانب النافذة و هاهى بعض الصحف تركتها لك لتسلِّيك .

قبل رِشوتى إليه مخفياً تحت قبوله و استكانته خبثاً غادراً إلي أقصي حد ، فمثله من أصحاب هذا الصوت العالى يحاولون إقناع الغير بمنطقهم باطلا .

لم يكن هناك من هو أحسن منه في التلصص عليها في الوقت المناسب . قام من مقعده كمسمار أو كضرس لا تخرجه إلا بالقوة ، فقد كان ملتصقا كلية ومحشورا بين سنَّادتيه كمن لصق بغراء .. فشددته منه محاولا مساعدته . وقد سعدت لأنى وجدت المقعد دافئا فى هذا البرد القارس . لقد راقنى إصرار المرأة على حقها كما أصرت من قبل على هذا المقعد بالذات .

أخذت حقيبتى و شكرت لى صنيعى بابتسامة جعلتنى لم أندم على مغادرتى لمكانى الهادئ بجانب النافذة . ونظرت إلى ساعتى لا أعرف إن كنت أحسب ما مرّ من وقت منذ مغادرة القطار محطته أم ما تبقى من وقت حتى أصل .. و كانت قد مرت عشر دقائق فقط على انطلاقه مغادرا إلى الإسكندرية ..

نزعت عن وجهها نظارتها الشمسية التى لم تخفِ بشرتها الحريرية البيضاء مردفة :

" آسفة على ازعاجك .. إنما هو إنسان مستفز وليس عنده مروءة . كان من المفترض أن يقوم لى كامرإة ولو لم يكن معى تذكرة "

لم أعرف كيف أغض طرفى إنما أجبرت عيناى على الإرتداد فقد ملأت عينيا بنور ملائكى لم أستطع معه إلا أن أجمع ما تبعثر منى وقلت لها :

" لديك حق فيما تقولين ما كان يجب أن يظل جالسا أمام هذا الجمال .. أقصد أمام إمرأة " .. و قد تصبّبت عرقا لانفلات تلك الكلمة رغما عنى ولاحظت إرتباكى فأعادت نظارتها و كأنها تلوم نفسها لرؤيتى وجهها الوضاء المزهر و عينيها العسليتين الساحرتين .. فأخفيت خجلى و أخرجت رواية " ليوسف السباعى .. " أذكرينى " لعلى أكمل بها رحلتى .. و عاودت نزع نظارتها بيد و الأخرى على غلاف الرواية و كأنها تعاود قراءة عنوانها قائلة :

" و أنت ..أنت يا توأم الروح يا منية النفس الدائمة الخالدة يا أنشودة القلب في كل زمان ومكان إذا قاربت الشمس على المغيب أذكريني....."

إننى قرأت هذه الرواية مرات عديدة و فى كل مرة أتألم لها و أبكى وقد حفظت من قراءتى لها مقاطع عديدة .. أهذه أول مرة تقرأها ؟ "

فاجأتنى برد فعلها بقلب غلاف الرواية ثم بهذه الكلمات الساحرة وكأنها تلقيها شعرا ..

- الحقيقة انها المرة الثانية فقط فقد قرأت الأولى ضمن الاعمال الكاملة ليوسف السباعى و لما وجدت هذه النسخة أحببت قراءتها منفصلة و أحفظ سطورا منها مثل :

- كنت أحب و عندما يحب الإنسان ، لا تنكر منه فعلاً أياً كان..

- ما الفائدة من أن تنادي شخصاً لا يسمعك

- الأمنية المطلوبة لا تأتي .. فكلما كف طالبها عن طلبها أتت ..

- كل شيء إلى الزوال مآله .. حتى الحزن

- في القلب كانت جذوره أعمق من أن تقتلع .. إلا إذا اقتلع القلب نفسه ..

- معقولة هذه الصدفة العجيبة .. أنا أحب " يوسف السباعي " هذا الأديب الرائع وقرأت جميع أعماله ..

و كأننا نطقنا بهذا معا ..

رويدا رويدا أخذنى الحديث حتى خيِّل لمن حولنا أننا زوجان ولسنا مجرد راكبين جمعهما قطار ليتفرقا بعد ذلك .. وكل آتٍ آتٍ لامحالة فى ذلك .. و قد نسيت ما اعترانى من حُمرة الخجل و ارتحت للحديث معها كأننا نعرف بعضنا البعض من عمر طويل .. وعدت أنظر إلى ساعتى لا أريد للوقت أن يمرّ . و مرَّ نادل القطار فطلبت عصيرا طازجا و طلبت لى معها .

قلت بل أنا من يجب أن يقدم لك شيئاً .. فطلبت مثلها .. مع أنى لا أشرب العصير .. لكننى وددت أن يذهب النادل حتى لا يسرق دقائق منا .. وأن يستمر حوارنا للعمر كله ..

الفصل الثانى

قرأت نظرات الحسرة بادية على وجوه كل الركاب من حولى .. يحسدوننى على الجلوس بجانب الشمس استمتع بالدفء فى هذا الطقس القارس الذى لم يفلح معه التكييف ..

- " أأنت من القاهرة ؟ "

- لا .. و لكننى كنت أنهى عقدا مع إحدى دور النشر ..

- و أنتِ ؟

صمتت واجمة وكست وجهها حمرة شديدة .. ولم تنبس بحرف ، ولم أعاود أنا السؤال ، فقد جاء النادل بما طلبنا .. إحتست بعضا من العصير و كأنها تهرب .. إلا أنها أجابت بنبرات كسيرة و قد اغرورقت عيناها بالدموع :

-" كنتُ .. " و توقفت تستجمع كلماتها ..

- " حضرت مؤتمرا طبيا فى جامعة القاهرة ثم زرت قبراً !! "

- ماذا ؟! أتذهبين كل هذه المسافة لتزورين قبراً .. آسف ، أقصد قبر من ؟

- قبرا والدىّ فقد رحلا منذ أعوام .. و أضافت فى صوت خفيض أكاد لا أسمعه منها :

"بل ما يزال هناك من الحزن ما ينزف دوما .. ليس على من رحلوا ، و لكن على من بقوا ! "

- يا لك من وفيَّة ..

- و ها أنت ترانى أعود فى نفس اليوم ..

- كان في عينيها حزن دفين... و على وجهها علامات ألم غائر إنغرس بعيداً في أعماقها حتى غدا قطعة منه .. و وقعت كلماتها على مسامعى فوجمت و اندهشت من رد فعلى الذى لم يكن على وفائها لوالديها بقدر ما كان على كل هذا الحزن و الأسى فى نبرات صوتها .. وهذه الدموع الحبيسه فى عينيها ..

حاولت أن أتجاوز شعورى هذا باجتساء عصيرى الذى لم يتجاوز شفتى و لم يبتل به لسانى ، و لكنى كنت فى حاجة لرطوبته ليرطِّب لسانى الذى جفَّ ، وحاولت أن أغير الموضوع فقلت لها :

- " فى القاهرة ينبغي أن تفتحي عينيك جيدا ... أن تتوخي الحذر والحيطة " و تنهدت..

و تسمَّرت عيناي في النافذة من جديد و أنا أسمعها في شرود و لا أريد للوقت أن يمر أبداً . فى كل مرة كنت أسافر فيها كانت عقارب الساعة لاتتحرك دائما ! و الآن .. أنظر متلهفا إليها لأعرف كم مرّ من الوقت ؟ و كم بقى على الوصول ؟ "

- إسمى " فارس " و أعمل كاتبا .. و لكننى أشعر أننى لم أحقق شيئا بعد ..و أنت ؟

- " رحمة ".. طبيبة.. و عاشقة للكتابة منذ طفولتى و لكنى بدأت كتاباتى الفعلية عندما شعرت أنى بحاجة لأن أكتب لنفسى و ليس للناس مثلك .. أحيانا تعجزك الكتابة وتهجرك .. يعاندك القلم و يقتلك الحرف ..

- ليس بغريب يا دكتورة رحمة أن تحبى الأدب فأطباء كثيرون برعوا فيه .. فالكتابة شئ عظيم ..

- و لما لا ؟! .. فعلى يد الأديب تُولد المعانى ، وعلى يد الأطباء يُولد الأدباء .. وضحكت بصوت خفيض - أنا أيضا قارىء نَهِم ، قرأت الكثير من الأدب العالمى .. و لكنى أعترف أنه لا يزال هناك الكثير يعتمل بداخلى و لم أكتبه بعد .....

- هناك أيضا أشياء كثيرة كتبتها لنفسى و لم أحاول نشرها .. كنت بحاجة إلى أن أكتب و أكتب .. ولو قرأ لى أحد ما كتبته لنفسى لظن أن بى مساً من جنون .. و لو قرأت إمراة ما كتبت لنفسى عن المرأة لأسفت لأنها لم تجد من يكتب عنها كما كتبت .. رغم أنى ليس لى سابق عهد بهذه الأمور .. و لكنه حبى للكتابة فقط ..

- هل لديك أعمال منشورة أستاذ فارس؟

- العديد للأسف !!

- و لما تأسف هكذا ..؟!

- لأننى أعتبر نفسى كاتبا خاسرا .. فاشلا .. لم أكتب نفسى إلى الآن .. الناس يريدون من يكتب لهم و عنهم .. و لا يهتمون لمن يكتب عن نفسه .. تصدمهم الحقيقة و يذهلهم الواقع أكثر من الخيال ..

- إذن أكتب نفسك كما تريد .. خلدت أعمال الكبار لأنهم كتبوا عن الناس و الواقع و عن أنفسهم أيضا .. لذلك نرى أنفسنا فى أعمالهم و نجد متعة فى قراءتها..

- أنت محاورة جيدة دكتورة رحمة .. مثقفة ، وربما لو لم تكونى طبيبة لكنت كاتبة و أديبة مشهورة الآن..

- درست الطبّ مرغمة .. و أحب الأدب جدا ..

نظرت فى ساعة يدها و لم تكن قد نظرت بها من قبل، و تساءَلتُ أيمكن أن تكون مثلى لا تريد للوقت أن يمرّ أم تراها تستعجل وصول القطار فقد يكون هناك من ينتظرها و تشتاق لقاءه ..

- يبدو أنى أزعجتك .. أعدك ألاَّ أزعجك باقى الرحلة بكلماتى التى يتألم لها الناس و يتألم منها من يقرأها .... لذلك فأكثر ما أكتبه يا دكتورة رحمة لا أجعل أحدا يقرأه لأن فيه روحى ودمى ينسكبان ، بل قولى إن قلمى ينزف من روحى مع كل كلمة أكتبها ، وهذه مشكلتى مع القلم الذى يعاندنى لو حاولت أن أكتب فى غير ذلك ..

- لا بالمرة ليس هناك إزعاج و لو لم أرد أن أتحدث معك ما تحدثت .. أمعك شئ أقرأه ؟

- للأسف تركت صُحفى للرجل السمين هناك ..

و خشيت أن تكون قد ملّت الحديث معى ولكنها تبسمت مردفة :

- " لا .. لا أقصد صحفا و إنما شئ لك أنت أقرأه ثم أعيده إليك .."

و كأنها أعادت إلىّ الحياة فقد شعرت أنى قدنلت جائزة تقديرية .. وقلت :

- أكتب رواية منذ فترة و لم أنتهِ منها و لا أعرف كيف أو متى سأنهيها ؟ ..

و هذه فكرتها .. كتبتها فى هذا الدفتر ..و لكن هناك أجزاء لم أكملها بعد .. أُعانى أرقا وعنادا من نفسى و أشياء غريبة تكاد تعصف برأسى عصفا أو قولى تمرداً على النفس، أو صراعات ما بين المرء ونفسه .. هذا أنا الآن فكيف أكملها ؟!

.. كيف أكملها بين ضجيج لروح لا تستكين، وجوارح ليس لى عليها سلطان ؟!

- لا تخف .. فكل ما بداخلك هو من صنع الله .. أكتب ليترجمه قلمك على الورق .. ويصبح ملكا لقرائك ومحبيك و أعرف أن الناس سيقرأون و يتقبلون هذا منك ، و سيصلهم الصدق فيه .. إنطلق.. و أطلق قلمك معك إلى ما وراء الأفق .. إلى كل الدنيا ..

- لا أريد ان أزعجك بما يشغلنى .. أعلم أن لكل إنسان أمره .. و الكتابة عذاب و الحياة ألم يجعلنا نكتب حتى لو لم يقرأ الناس ما نكتب ..

- أعرف يا أستاذ فارس ما تقصد لأنى أنا أيضا أكتب لنفسى كما ذكرت ..

أخرجت الرواية غير المكتملة من حقيبتى ..

" لن ترهقك فى القراءة فأنا أكتب على وجه واحد من الصفحة كما ترين .. "

- سوف أتركك الآن حتى لا أزعجك بهلوسة ماقبل الكتابة فهى أشبه بأعراض مرض مزمن ليس له علاج و أشبه بالجنون يصيبك .. و لا منجى منه إلا بالخيال أعيش به و أنطلق فى براريه حرا طلقا ، لايقيدنى أو يأسرنى شئ ..

- نعم أنت على حق ..

- لو قرأت روايتى هذه التى لم تكتمل لظننتى أنى سوف أحتضر بل و أموت .. أشعر أنى ذبحت نفسى بها .. و لم أسمها حتى بعد ..

- أكل هذا الكم من الألم بداخلك ؟

- ممكن أن أقرأها إذا سمحت لى .. ؟

- تفضلى ...

- أتسمح أيضاَ أن أستخدم قلمى الأخضر فى وضع علامات على الكلمات و العبارات التى تروق لى وتعجبنى ... فمن من المؤكد أن أحاسيسك انصهرت وسالت على الورق حروفا من ذهب و فضة .. رائعة ...

حاولت أن اخفى إعجابى بإهتمامها و شعرت أنى فى عالم آخر غير العالم .. و مع ذلك فقد خشيت أن تقرأها فتقرأنى .. ففيها منى ، وفيها من نزف روحى الكثير ..

- ما اسم روايتك يا أستاذ فارس ؟

- لم أسمها بعد لكنى أفكر أن أسميها " القطار" .. فقد سيطر عليّ هذا الإسم و أنا أكتبها فأحداثها كلها تدور كقطار حياة بكل متناقضاته ..

هزت رأسها كأنها توافقنى الرأى .. ناولتها دفترى وكررت عليها قولى أن هذه " مسودة " غير مكتملة و أن بها أجزاء كثيرة ناقصة استعصت عليّ ولم أكتبها بعد فهى أشبه بحمل أود أن ألقيه عن ظهرى..

ولم انجُ منها بعد فلا رأيت أمواج بحر و لا شاطئ يتلقى رحلى ورحالى و اعيش ما لا اعيشه مع هذه الرواية بعيدا وتمنيت لو لم أعرف كيف أكتب لنفسى أو للناس .. تمنيت لو لم يعرف القلم طريقا الىّ .. تمنيت فعلا لو لم أكن فى هذا العالم .. إنها رواية جعلتنى أشعر أنه لم يتبقى منى إلا أشلاء وبقايا نفس احاول أن ألملمها من بين كلماتها وسطورها ، ولا أريد أن اجعلك تشفقين على من يكتبها ، إلا أنها طمأنتنى بابتسامة هادئة مستطردة :

" أعلم أن لكل أديب عالمه .. و ربما استعصى عليك شئ فى الماضى فتجده اليوم أو غدا ، ربما وجدت معنى و فقدت آخر .. أو تاهت منك بعض الكلمات و مازلت تبحث عنها ... "

لم يقرأها أحد الا أنا فأنا أكتبها لنفسى .. كنت محتاجا لان اتحدث حتى لا يأخذنى جنون الكتابة .. الناس قد يعجبون بما اكتب و لكن لا يعرفون لماذ اكتب ولمن اكتب .. وتخذلنى ارادتى حينما اود تركها لافرغ فيها ما تبقى من صوت ألم ، فلا أعرف إلا أن أكتب حتى لو تألمت وفاضت كلماتى وفاضت معها عينيا بالدموع .. فتوقفت حتى لا اكتب شيئا يهرب منى و لا أستطيع رده .. ادعى لى أن أتجاوز هذه الحالة التى يستفيد منها الناس فقط بقراءة ما نكتب و لا يعلمون كيف نكتب .. وصمتت قليلاً و لم أستطع أن أرد .. فكأنها تنبئ عنى بما تعرفه .. كأنها تشخِّص مرضا أصابنى و تعرف جيدا أعراض المرض كطبيبة ماهرة ..

فأنا مع هذة الرواية بحال عجيبة فقد تخيلت نفسى كمن أشاهدهم وكأنى منهم أردّد كلاما غير مفهوم .. بصوت مرتفع .. وأمشي في الطريق العام حافياً بشعرى طويلاً على كتفىّ منسدلا ، فاكتفيت بالصمت متعجباً لهذه الصدفة العجيبة التى جمعتنا معنا .. وتساءلت بينى و بين نفسى :

-" أترى ما حدث لها مع الرجل البدين كان من ترتيب القدر ليجمعنا معا هكذا ؟!.. أترى كانت غلظته وجداله معها رحمة بى وبها لأجلس مكانه و أفوز بهذه الصحبة الرائعة .. ؟

وقبل أن أفيق من تساؤلاتى سألتنى هى :

" و ما هو موضوعها وعما تدور ... ؟"

حكيت لها أن البطل ضابط ترك الخدمة إيمانا بمبادئه وهاجر من القاهرة إلى بلدته ليقيم بالصعيد .. مهموما و لكن مع إغتراب مع الذات و انغلاق على نفسه .. يتمزق بين أسرته فى بلده و بين تشويه حموه المسؤول الكبير لسمعته حتى يفرق بينه و بين زوجته التى منعه عنها و احتجزها فى منزله الأشبه بالسجن ... رغم حب زوجته الشديد له و مراسلتها له سراً خشية سطوة أبيها الغاشم المتسلط .. و لا حيلة معه لدهائه الشديد و سلطاته الواسعة .. دائما يسافر بالقطار إلى القاهرة ..

ثم بدأت القراءة ممسكة بقلمها الأخضر .. و مرَّ النادل مرة ثانية فطلبت قهوة بدون سكر لى و لها وكأنها تعلم ما أحبه من مشروبات .. وأضافت :

- أحب مع القراءة دائما القهوة و ليس العصير ..

.. أستندت ظهرى ضاغطا على خلفية المقعد لأنفث فيه قلقى على مرور الوقت و من إنتظار لحظة إنتهائها من قراءة الرواية . و حاولت أن أغمض عينيا مركزا على صوت القطار الهادر على القضبان.. ففشلت .. وعاودت المحاولة مرة أخرى فوجدتها ساكنة تحت جفنىّ تنظر إلىّ بعينيها العسليتين الساحرتين .. مرتدية هذا الرداء الزيتونى الموّشى الذى يزيدها جمالا و سحرا .. و كأنها حورية من الجنة تطلّ عليّ .. أنظر إليها وتنظر إليّ .. كدت أجن من محاولتى إغماض عينىّ .. و لا أعرف كم عدد المرات التى حاولت فيها ذلك فأفشل فى غلق عينيا قتلا لقلق الإنتظار ..

أخذت أرتشف المشروب الساخن رشفة بعد أخرى بينما هى هادئة ، وانا أصبّ الغضب على نفسى لأننى أعطيتها ما أخذها منى ، ولكننى تراجعت فلولا شجون الأدب و الكتابة ما كنا تحدثنا هكذا . وحاولت أن أتزن حتى لا يظهر منى هذا الشعور أو اضطرب .. وآخر ما توصلت إليه لأهدأ أن نظرت إلى النافذة الأخرى متابعا جريان الحقول عكس القطار ، أتابع شجرة هنا و أخرى هناك .. حتى تلك القرى التى تختفى ورائها أو تتقوقع خلفها ، و أقول لنفسى كم شهدت تلك الحقول من قصص .. وكم ظلّلت هذه الأشجار تحتها .. وكم بنت الطيور من أعشاش فوق أغصانها .. وهكذا بدأت أهدأ شيئا فشيئا .. وشردت و أخذتنى أحلام اليقظة لأتوه معها ومع قصص فى تلك القرى أتخيلها فى ثوان لتبدأ وتنتهى و سرعان لتبدأ أخرى من جديد فى اللازمن ..

ونظرت للساعة فى يديّ .. ياالله مرت نصف ساعة أخرى من لحظة قيام القطار من القاهرة و الذى يتزايد صوته فى أذني بعد توقف الحديث بيننا .. فلم أشعر به أو أنصت إليه فى الفترة التى تحدثنا فيها .. ورحت أنتهز فرصة إستغراقها فى القراءة لأختلس النظر إليها عبر إنعكاس صورتها على النافذة المقابلة أوبنظرة جانبية دون أن تشعر أو تفطن إليّ . وجدتها تكتب فى الصفحات البيضاء التى أتركها بلا كتابة كعادتى .. فعجبت ..

و زاد قلقى .. ترى ماذا تكتب ؟؟.. و يمرّ الوقت بطيئاً هذه المرة رغم سرعة القطار الكبيرة .. بعدما كنت أتمنى ألا يمرَّ و أن يتوقف الزمن أو يتأخر القطار .. وتنازعتنى الرغبة فى أن يطير بدلا من سيره على قضبانه ..حتى أنى تمنيت أن يسافر بنا إلى أسوان وليس إلى الأسكندرية ليسافر ألف كيلو و ليس مائتى كيلو مترا فقط .. أو حتى ليضل طريقه إلى المريخ أو يسير كسلحفاة ..!!

وجاء النادل و تعمدت أن أناولها قهوتها حتى أرى ما تكتب و لكنها أغلقت الدفتر واضعة قلمها الأخضر فى موضع وقوفها فى قرائتها .. و فوجئت بها تقول لى:

" أنت أديب ماهر يا فارس !! تعبر عن خلجات النفس و كأنك تسكن بها .. تعرف ما يدور داخل كل شخصية من شخصياتك .. تعرف عنها كل شئ حتى أدق التفاصيل .. "

فقلت معلقاً :

" ليس هذا بالضبط و لكننى أشعر أن كل إنسان يحتاج أن يعبر عن نفسه و أحاول أن أضع نفسى مكانه لأشعر بما يشعر .. ألمه و حزنه .. سروره وغبطته .. مشاعر الأسى و السعادة.. و أعبر عن الألم ببراعة أكثر لأننى عشته كثيرا ..

و حينما نطقت بهذه الجملة تذكرت لحظتها لماذا انتهت قصتى الوحيدة التى كتبتها فى القطار بموت الفتاة فى نهايتها على درب مغروسة على حافتيه أشجار التوت الظليلة و التى لم تظللها !!

و نظرت إليها فاذا هى شاردة واجمة عبر النافذة ناظرة إلى الأفق البعيد ...

و كاد الوقت أن يقترب من الغروب .. و رأيت فى عينيها دموعا مسجونة ، و مسحة حزن على وجهها تحاول أن تخفى معها خلجات وجهها كى لا تظهرها لى .. وتوارت خلف إحتسائها للقهوة و سرعان ما انتهينا منها و علَّقت :

- " أكملها و انطلق يا فارس فسوف تُكسّر هذه الرواية الدنيا .. وتذكرنى ساعتها ..ثم قالت .. كتب الله لك السعادة و الهدأة .. و أراك أكبر كاتب و أديب فى الدنيا.. و أردفت مبتسمة :

- " لا أريد أن تنتهى الرحلة دون أن أكمل قراءة روايتك لأكون أول قارئة لها !

حاولت أن أُخفى قلقى الذى ظهر علىَّ كمن ينتظر نتيجة إمتحانه ، أو كوالد أمام غرفة عمليات لايعرف ماذا ستنجب له زوجته .. و وجدتها تنظر مرة أخرى إلى ساعتها .. فنظرت إلى ساعتى و قد مرت ساعة كاملة من وقت الرحلة و لم يتبقَ إلا واحدة فقط .. لم أستطع التغافى و لم يأخذنى وسن البتة و لم أعد أشعر بالبرد مطلقا ، ... نظرت إلى النافدة و قد أوشك الوقت على الغروب و الشمس حمراء كأتون هادئ من وراء الأفق .. يودعها النهار .. ذلك الأفق الذي يجر خلفه ليل الشتاء الحالك ويحتضن أسراب الطيور عائدة بطانا إلى أشجارها ..

لأول مرة لا أرى للغروب دهشته و رهبته .. ذلك الجمال البرتقالي المائل الى الحمرة الآخاذ بروعته وبهائه .. يخط السماء ، و هذا الطيف الممزوج بجمال السمت ، و لم أشعر كما كنت دائما بأنه جمال لايدوم. و نسيت هذا الطقس قارس البرودة و الذى عانيت منه منذ الصباح .. و نعمت بدفء يسرى فى أوصالى و فى قلبى و أنا أسترجع بذاكرتى كل ما دار بيننا من حديث و كأننا قلنا كل شئ ..

عاودت النظر إليها و هى تقرأ و تكتب بقلمها الأخضر، و استحال صوت القطار لدندنات و ألحان و كأنه سيمفونية لبيتهوفن أو كونشريتو الفصول الأربعة لفيفالدي .. تمنيت أن تتوقف عن القراءة لنتحدث كما كنا نتحدث منذ قليل و هممت أن أقطع عليها قراءتها وما تكتب .. و لكننى نظرت فوجدتها قد أوشكت على الإنتهاء .. فعاودت النظر إلى ساعتى و قد مرت ساعة وعشرة دقائق ، و رغم قلقى من مرور الوقت و من قراءتها إلا أننى كنت فى سلام مع نفسى و فى هدوء غريب ..

و انتهت أخيرا من القراءة و ناولتنى الدفتر طالبة منى ألا أقرأه إلا عندما أصل منزلى .. و بنظرة حانية غاضَّة معها طرفها قالت لى :

" أكملها يا فارس روايتك رائعة.. "

فذبت خجلا و أجبتها :

- " كيف أكملها بعد ما شرحته لك ..؟!! "

- لا بل لابد و حتما أن تكملها .. و أعلم أنك سوف تفعل يا فارس .. أنت تضع يديك على ما بداخل النفس البشرية تفتش فى مكنوناتها وتعرف دوافعها وسلوكها .. أسلوبك يدخل العقل والقلب .. فلا تتوقف..

- سأحاول .. لكن ربما لن أستطيع إكمالها .. وربما لن أكتب غيرها بعد ذلك .. ربما .. فقد أفرغت ما كان بى من إنفعالات و لكن لم أكملها .. كنت وقتها بحاجة الى أن أكتب و أكتب حتى لو لم يقرأها أحد ..كما أظن أن لن يتجرأ ناشر و ينشرها .. و هذه مشكلة أخرى ..

ساد صمت للحظه .. ثم قلت :

- كلماتُك لى ألهمتنى شيئا سوف أكتبه فيما بعد ..

- و لما ليس الآن ؟ ربما لن يأتيك ثانية .. فالإلهام طائر إذا فرّ من بين يديك لن يعود ..

فأخرجت دفترى و قلمى متمتما و مدونا :

" وكيف أذكركَ وأنت لم تمضِ ..

وكيف أنسى من كان نبضى ..

تلك كلماتى تنبئ عنك و عنى ..

من كنت منه و كان منى ..

أخشى أن يسبقنى إليك بالشوق قلمى

فلا يسكت القلم .. و لا يسكن ألمى .. .."

- هذا أنت شاعر أيضاً !!

- لا أبداً .. هذه جملُ جاءتنى الآن فلست بشاعر ولن أصبح .. مالى و الشعر .. فالشعر كالحب .. منه ما قتل .. وربما تكون أبياتا مكسورة فلا أتقن بحور الشعر و قد أغرق بها ..

و ابتسمت قائلة :

-" أعتقد أنك لن تستطيع .. فشئ عجيب أمر الكتابة .. لن تستطيع أن تهرب منها أو من الشعر .. .. " ياالله " .. يا فارس .. لقد أحببت عالمك ..إن عذاب الكتابة يشبه كثيرا عذاب الحب .. أحلى عذاب و أمر عذاب ..

وابتسمت ..

- و أنت يا دكتورة رحمة ؟

- أنا ؟ .. أما عن الكتابة .. فأنا أحب جدا أن أكتب من خلال من أقرأ لهم كيوسف السباعى وإحسان ومحفوظ و غيرهم .. أفضل أن أبقى بجانبهم و هم يكتبون .. وراء الكلمات ، و بين السطور .. أعيشهم وأشعر بذلك و أنا أقرأ لهم .. و ابتسمت قائلة:

- "و أعدك بعدم الإزعاج فلن أجلس بجانبك و أنت تكتب .."

ثم امتد حوارنا هادئا صامتا .. و رحت أسأل نفسى متعجبا :" أهناك ثمة شيء ينتظرنى؟؟ " فما حاورت أحدا و لا تواصلت مع أحد هكذا من قبل .. أنتِ فقط من أخرجتنى من عالمى و صومعتى بالحديث معكِ لما لمسته فيك من صفاء روح و نقاء سريرة وطوية على كل خير.. لم يكن لى إلا قلمى و ورقى وغرفة مكتبى أغلقها على نفسى و معى كتبى ودفاترى وأناس من عوالم أخرى أعرفهم و أحبهم .. منهم من عاش من مئات السنين و منهم من مازال بين الأحياء .. لا أجد نفسى إلا مع كتبهم وأفكارهم فيصبح الوقت ليس له معنى و ينعدم إحساسى بالزمان وبالمكان ، مستغرقا فى كتابة أشياء كثيرة عندما تأتينى هذه الحالة .. و ربما شعرت أنى فى روسيا القديمة أو إنجلترا الفيكتورية أو أهتف للثورة الفرنسية.. ولا يصبح لديا سلطان على نفسى و أنا أكتب ... حالة لا شعور و لا وعى . وعندما أقرأ ما كتبت أجرى تعديلا هنا و إضافة هناك..

وقد أكتب القصة مرات و مرات .. و فى كل مرة أمزق ورقا و أعيد كتابة آخر . . و ربما مزقته حتى لاأعود اليه فأتحرر من سطوة تعبير أو كلمة أو فكرة فيأتينى آخر .. ألجأ إلى الخيال حينما يتعذر عليَّا مواجهة واقع أقابله .. أرتاد عوالم ماضية لم أزرها مع تشارلز ديكنز .. تولستوى .. ومكسيم جورجى.. وغيرهم ..و أعيش متعة مواجهة قسوة الألم .. واكتشف أنه لم يكن ليتسنى لأديب أن يبدع إلا بخياله و ليس واقعا فقط رآه ..أتعذب معهم وتعذبنى كتاباتهم وأعيش مع أبطالها أعرفهم بأسمائهم .. أعرف كيف يفكرون وربما أكون وسطهم لا يشعرون بى و ربما خذلتهم وبعدت عنهم .. شئ عجيب .. .

و استغرقت فى الحديث معها بينى و بين نفسى :

أرأيتِ ترددى؟.. ألأنى لم يكن من عادتى الحديث مع أحد ؟ .. أم لأنى أخشى أن تتعدى بى حدود اللاوعى فى الحديث فأشعر كأننى أكتب و لست أحادثك .. ؟ فأقول ما لا أتوقعه و ما لا ينبغى ، وأخشى ردة الفعل من نفسى و ليس منك .. فأنا معتاد على الكتابة ولست معتادا على الحديث ، و ربما لمست فيٌّ تلك "الخيْبة" العظيمة .. ربما يكون سبب ذلك هو إبتعادى عن الناس و حياتى التى أقضيها مع نفسى كتابة وقراءة .. لا أخشى قيودا فيها و لا حسابا ..أنا معك أينما كنت و فى كل زمان و مكان .. كنت معك وكان يفصل بيننا ما لا نراه .. و الآن أنا أقرب .. تحت نفس السماء ونتنفس نفس الهواء .. .. فجأة وجدتها تحادثى و كأنها تعلم ما كان يدور فى نفسى وبصوت حانٍ :

- كن على سجيتك ولا تعذب نفسك.. تكلم وسأسمعك ..

- المشكلة أنى معتاد على الكتابة و لست معتادا على الكلام و الحديث .. حياتى كلها مع الورق، والقلم، والسهر وحيدا .. هذا عالمى و أجد نفسى فيه .. أحب كتّاب وأدباء عظام ماتوا و رحلوا عن عالمنا لكنهم عاشوا فى أعمالهم ..أكاد أعرفهم و أعرف كيف أنهم كانوا مثلى .. معذبة أرواحهم .. ربما أحبوا و ماتوا بحبهم .. لايدرى بهم أحد ، لكنهم وضعوا أرواحهم فيما كتبوه ليرى الناس فيه أنفسهم و أحلامهم .. عالم عشقته طوال عمرى و لا يشاركنى فيه أحد إلا هم .. وأشاركهم عوالمهم ..

و حاولت أن أغمض عيناي لأحادث نفسى فما تحاورت ولا تواصلت مع أحد هكذا من قبل .. ربما لمست جرحا فى نفسى ، ولكنها كانت صادقة وبها روحانية غريبة .. شكوت إليها ما يعترينى فخففت عنى :

- " عبثا أقول لك لا تكتب فالكتابة هي روحك وحياتك و شكوتك الى الله .. أكتب يا فارس أكتب .. فالكتابة فقط هي ما سوف تخرجك مما أنت فيه .. صُّب جامّ غضبك في كتاباتك وانشرها .. إن نشرها سيساعدك كثيرا.. "

فارس .. " كلماتك رائعة مسَّت قلبي ووجداني وهزت مشاعري .. أكتب دائما .. ستجد دائما آذانا صاغية و قلبا مفتوحا و لسانا يدعو لك ..

- آسف على إزعاجك .. أنت فعلا رحمة ..

- اشكر لك الإطراء على إسمى ...و لكن لاتحرم نفسك بيأسك .. و تأكد .. لم تسبب لي أي إزعاج .. أنا برغم ما بداخلى من حزن و ألم إلا إنني سعيدة لأنك وجدتني أهلا للثقه و تحدثت معي عن نفسك و آلامك و مشاعرك .. أكتب يا فارس .. أكتب دائما و لا تتوقف ..

- أشكرك فكلماتك أثلجت صدرى و حقيقة لا أجد كلمات تناسب إحساسك الرائع ...

كم هى جميلة رقيقة مثل كلماتها ..

ازدادت سرعة القطار و لكننا كنا فى تناغم أشبه بتوحدنا مع آلات موسيقية تعزف ألحانا كونية أسطورية لا يسمعها إلا أنا و هى هناك بين مجرات الكون العظيم .. هى و أنا .. و فى هذا الهدوء الغريب قالت لى :

" قلبى منقبض يا فارس .. " ولم تكمل عبارتها حتى إنطلقت صرخة مدويَّة .. شقَّت الصمت كسكين حاد جرى فى لحم حىّ .. تمزقت لها القلوب و فزعت .. كانت صرخة إمرأة .. وتلتها عدة صرخات وهاج الركاب وضجّوا ..و قاموا وقوفا حتى من كان نائما إستيقظ فزعا.. حتى رأيت الرجل البدين واقفا يشبّ برأسه ليستطلع الأمر ..

الفصل الثالث

مرت ثوان أشبه بدهر حتى نستطلع الأمر والذهول يعترى وجوه الجميع و تبيَّنا مصدر الصوت وكان فى منتصف عربتنا و إذا بالجميع يحاول يعرف نبأ المرأة الصارخة بألم يصدع الفؤاد وتنقطع له الشرايين .. وتوالت صرخات رجل كالمجنون :

" الحقونا .. الحقونا يا جماعة .. مراتى بتولد "

" حد ينقذنا .. أوقفوا القطار... ما فيش دكتور هنا"

و لكن أنَّى للقطار أن يقف .. ؟! هيهات فقد كان فى كامل سرعته و كان الوقت قد مرَّ .. وأصبحنا على بعد ثلث ساعة تقريبا من الإسكندرية ..؟

و تعالت أصوات الركاب معاتبة الزوج الفزِع :

- كيف سمحت لنفسك بالسفر بها يا رجل وهى فى هذه الحالة ؟

- السفر طويل والرحلة متعبة و مضنية ؟ "

ويجيبهم : " ما زالت فى شهرها السابع ياجماعة ، هو انا دخلت فى علم الغيب .. دى عندها السكر كمان .. حد يساعدنا .. حد يطلب لنا إسعاف "

كانت إمرأة فى الخامسة والثلاثين من عمرها تقريبا ، و قد تحلَّق الركاب حولها و أسرعت النساء تساعدنها على التماسك و مازالت تصرخ و تتألم .

إنتفضت رحمة مسرعة قائلة بصوت عال :

-" أنا طبيبة افسحوا لى الطريق .. "

و وصلت إليها و قامت النساء بمساعدتها و قد منعن الرجال وراء ظهورهن فتقهقروا إلى الخلف .. وأسندنها قاعدة على الأرض بين صفي المقاعد حتى يسترنها ..

أسرعت " رحمة " بمعاينتها ثم جاءت فأخرجت مُسكِّنا من حقيبتها لتعطيها إياه..

و سألتها عن حالتها فأخبرتنى :

- هذه حالة ولادة مبكرة قبل الموعد ،و لا أُخفى عليك .. الحالة خطرة خاصة وهى تعانى من مرض السكري فى سنّها هذا..

- ما معنى ذلك يا دكتورة رحمة ؟

- الولادة المبكرة تمثل أحياناً خطراً على حياة الجنين فالطفل الخديج يخرج إلى الحياة وهو ناقص النمو ناقص الوزن .. لأنه لم يكمل تطوره في رحم الأم وهو معرض للإصابة بأمراض جسدية و عقلية وهناك خوف من شيء واحد يشكل خطراً عليه إذا ولد الجنين حياً ، فلابد من وضعه في المستشفى لحاجته إلى مساعدة في التنفس .. مع نقص الحرارة و خطر نزف دماغي و نقص المناعة.

- المهم هو إنقاذ هذه المرأة المسكينة الآن حتى لو مات الجنين !!

قامت النساء بمساعدتها على التحامل للوقوف وطلبت منى رحمة نقلها مع بعض الرجال إلى الممرّ القريب بين عربة " البوفيه " و عربتنا فالمكان هناك اكثر اتساعا .. و فعلنا ما طلبت..و المرأة لا زالت تتألم وتتوجع و يتعالى صراخها من شدة الألم برغم المُسكِّن.. فسألتها : " وبعد يا دكتورة ؟ "

- الوقت ينفذ من بين أيدينا وحتى لو توقف القطار فى كفر الدوار فلن تلحق بنا عربة اسعاف .. لا بد من توليدها فقد نزل دم و إفرازات سائلة كثيرة كالماء وهذا خطر عليها وعلى الجنين .. أغلق هذين البابين يا فارس .. اطلب من الركاب كل من معه ملاءة فليحضرها لنا من المؤكد أن الكثير منهم معه فنحن فى سفر .. ثم أغلق الباب بعد أن تحضر ما تستطيع وهات لى حقيبتى و معطفى من فضلك .. "

خرجت و ناديت فى الركاب الهلعى على المرأة وسرعان ما تفتَّحت الحقائب و إمتدت الأيدى بكل ما يصلح معهم من ملاءات و أغطية حتى أن محاميا أخرج لى روبه و أعطانيه ..!!

عدت نحو الباب فوجدت الرجل البدين واقفا وليس جالسا ملتصقا بمقعده كما رأيته أول الرحلة بل كان يكاد يبكى ويرتعش فذهلت و هو الغليظ المجادل.. فذهب يخبرنى لمّا رأى علامات الدهشة على وجههى مستغربا من حاله.. أنه فقد ابنته فى موقف كهذا وكانت عنده قبل عملية الوضع لسفر زوجها ولم يستطع نجدتها وقبل أن يكمل حكايتها كنت قد تركته طالبا منه أن يقف وراء الباب و ألا يُدخل أحدا مطلقا فحشر نفسه بالفعل ورائى بين صفى المقاعد سانداً بقدميه حتى لا يمر أحد إلينا .

و دخلت على رحمة وأنا أحمل الملاءات وبطانية أعطانيها أحد الركاب .. فقامت رحمة بوضع البطانية بعد أن أثنتها ثم رصَّت الملاءات بعضها فوق بعض مشكلةً هيئة فراش على أرضية الممر و أَنَامَت المرأة بمساعدة زوجها و إحدى النساء التى تطوعت لمساعدتها .. و وضعت تحت رأسها روب هذا المحامى مطبقا كوسادة .. و باقى الملاءات وضعتها جانبا.. وطلبت منى قصَّها بسكين كشرائط .. وتأكدت من عدم تسرب الهواء من تحت عقب باب العربة الجانبى ثم طلبت منى إحضار كل ما أستطيعه من ماء ساخن و أدوات الإسعاف الأوّلى الموجودة فى عربة البوفيه التى تلينا..

وأصبح الممر أشبه بغرفة عمليات تم إعدادها فى أقل من خمس دقائق .. و أسرعت للبوفيه الذى كان مكتظا بالوقوف يستطلعون الأمر وتعلو أصواتهم بالدعاء ، فأحكمت إغلاق الباب و أسندت ظهرى عليه لأمنعهم من الدخول و طلبت من النادل كل ما عنده من ماء ساخن كما طلبت رحمة ..

و جاء أحد الركاب و كان ضابط قوات مسلحة ونزع عنه سترته الرسمية و شمَّر أكمامه فإذا به و قد كسر صندوق الإسعافات الأولية المثبت فى جدار العربة بإحكام ليأتينى به كله و قال لى :

" اذهب به للدكتورة و عُد لتجد الماء جاهزا !!! "

عدت الى رحمة فإذا بها وقد غطت الجزء العلوى من المرأة بمعطفها الجلدى لتدفئتها وقد ذهبت فى شبه غيبوبة من الألم .. وأشارت لى بالخروج مصطحباً زوج المرأة المنهار وذهبت مسرعاً لاحضر الماء الساخن فاذا بالضابط وقد أفرغ زجاجات الماء المعدنية و قد شغَّل كل

غلايات البوفيه ليعبئها بالتناوب فلا يبرد الماء و يناولنى إياه أنا و الزوج المكلوم .. و صوت دعاء الناس يأتينا من خلف الباب .. مبتهلين إلى الله لينجِّي المرأة.

.. في الأزمات تتوحد الناس طلبا لأمل و نور يهديهم حين يفقد الألم ملامحه .. فهؤلاء الركاب جمعهم قطار واحد ولم يكن يربط بينهم شئ منذ قليل سوى التزاحم و الجدال والثرثرة و رنين الهواتف وإنتظار محطة قادمة يهبطون فيها .. فأصبحوا كإمرأة واحدة ورجل واحد تقودهم رحمة .. و ليس أنا ..

كانت حالة الولادة المبكرة لتلك المرأة و صرختها واستغاثة زوجها - من وجهة نظرى - هى حالة ولادة متأخرة لهذا التوحد الذى حدث بين الركاب ..

مرَّ الوقت علينا مثل البرق و يتصاعد البخار من الغلايات التى تسارعت و كأنها تساعدنا .. تسارع البخار مع عقارب الساعة مع تصاعد صوت هدير القطار على قضبانه .. و كأن كل شئ حولنا قد تحول لساعة موقوتة تنازلية .. تتسارع معها أنفسانا تسابق الزمن لإنقاذ تلك المسكينة .. وكلنا يسمع رحمة صارخة فيمن معها أعطينى منشفة .. فدماؤها تنزف ..

وألهث مع ضابط القوات المسلحة الذى راح يساعدنى حتى ابتلت ملابسه من عَدْوه بالماء وتصبَّبَّ وجهه عرقا رغم البرد الشديد .. وامتلأت أرضية عربة البوفيه بالماء المتساقط على الأرض ممتزجا مع دماء المرأة التى تسربت من عقب الباب الفاصل بيننا و بين الردهة ..

وما زال جميع من كان بعربة البوفيه واقفاً بين من يدعو و يبتهل و بين واجم لا يعرف ماذا يفعل .. وآخر ساندا برأسه على جدار العربة تنساب دموعه ..

جثوت على ركبتي لأناول رحمة ماتحتاج من خلف الباب .. يكاد كل منا يسمع نبض كل شيء .. ورحمة تصرخ فى المرأة ألاَّ تدع حياتها تهرب من بين يديها .. و ألاَّ تدع الأمل يتهاوى .. صارخة فيها :

" سوف تعيشين ... إسمعينى سوف تعيشين تماسكى من أجل طفلك .. "

تزايد صوت هدير القطار على القضبان يطحن معه لحظات الانتظار الطويلة .. يسير بنا و يذهب إلى عمق غريب مع مشاعر الرهبة تجاه المصير المجهول لتلك المرأة و مشاعرنا التى تعلقت بها.. إلى مكان بعيد ناء لا يوجد منا من يريد الذهاب إليه .. هناك حيث قد تنتظرنا القسوة و الغربة و الوحشة من أوجه الغرباء .. فالقطارات تشق دائما لنفسها طريقا ..

و اتصل الضابط بمستشفى القوات المسلحة لترسل سيارة إسعاف بسرعة صارخا فيهم :

"معنا إمرأة تموت ارسلوا سيارة إسعاف حالا .. "

و انطلقت فجأة صرخة الوليد لتقطع كل صوت .. صوت بخار غلايات الماء و صوت هدير القطار مسرعا بنا رائفا بحالتنا .. و مازالت أعيننا معلقة بالباب الذى لم ينفتح بعد ، و إذا بصرخة أخرى لوليد آخر ..

"ربى انهما إثنان وليس واحداً .. توأمان خرجا للحياة مبكرا .. وصرخت رحمة :

" يا فارس ولد وبنت يا فارس .. توأمان .. يافارس"

والقطار يقترب من الإسكندرية على بعد عشرة دقائق .. و الخديجان يجب ان يوضعا فى حضانة سريعا و إلا فقدا حياتهما و الأم مازالت تنزف و قد إستخدمت رحمة الشرائط التى صنعتها لها.. ونادت عليّ :

- فارس .. فارس اتصل بهذا الرقم من هاتفك أرجوك فلا أملك أن اتصل من هاتفى ، وأملت عليَّا الرقم ووضعت سماعة الهاتف على أذنها من خلف الباب و أنا جاثيا على ركبتى أسمعها :

- " اتصل بالاسعاف يا سيف ليستقبلونا فى محطة سيدى جابر .. معى إمراة تموت .. وطفلان يلزمهما حضانة أرجوك بسرعة يا سيف ..."

وسمعت صوتا غليظا فجا يجيبها :

- " ما هذا الرقم الغريب الذى تحدثيننى منه ياست الدكاترة ... !!! "

- ليس هذا وقت العراك يا سيف .. ألا تنتهى .. أقول لك معى ثلاثة أرواح فى خطر ..أنظر لا وقت للعراك الآن كعادتك .. عندما أصل أفعل ما شئت.. أرسل سيارة إسعاف و لا تخف فسوف أدفع أنا التكاليف ..

- ومن قال لك أنى سوف أتصل أو أدفع مليما أصلا .. هو أنا يا ست هانم خلفتهم ونسيتهم .. ألاتتوقفين عن عبطك وهبلك ده .. و مؤتمرات إيه و طب ايه على دماغك.. !

- ألن تتوقف عن الصراخ و عن شتائمك أبداً .. ورفعت خدها عن التليفون ليسقط فى يدي مع صوت إغلاق الخط ..!

وصلنا بالفعل محطة سيدى جابر لنجد سيارة إسعاف القوات المسلحة المجهزة فى الانتظار بفريق من الأطباء و كافة الإستعدادات كما قامت الشرطة بمساعدتنا على إخلاء الطريق على رصيف المحطة من الركاب المتدافعين يدفعهم الفضول ليروا ماحدث .. و نقلوا المرأة و قد وضعوا عليها ما يشبه الخيمة "بلاستيكية " و كذلك الخديجين التوأمين ..

وصعدت رحمة معهم إلى سيارة الإسعاف و قد أشفقت عليها من البرد القارس فنزعت معطفى وألقيته عليها فتدثرت به و أنا أشعر أنى أدثرها بقلبى من هذا البرد الذى ينخر العظام مع رزاز من المطر أصابنا جميعا بالبلل و تَرَكَت معى معطفها الذى أصابته دماء المرأة .. فوضعته فى كيس بلاستيكيى أحضرته من عربة البوفيه .. و تلفت حولى و جالت عيناى المكان يسبقهما الفضول لكنى لم أجد من كانت تهاتفه رحمة و نحن فى القطار منتظرا ..

و افترقنا ترتدى معطفى.. و معى معطفها و قد نسيت بجيبه هاتفها ..

وعدت إلى المنزل لا أعرف كيف .. رجعت و قد ازدحمت رأسى بتفاصيل هذا اليوم الصّاخب تطاردنى .. أخذت حماما ساخنا لأزيل ما علق بى .. الغريب أن تلك التفاصيل لم تدعنى فتذكرت أنى قارنت بين بشرتها البيضاء الناعمة و بشرتى قمحية اللون ، و أنا أعطيها دفتر روايتى ولا مقارنة أصلا بينهما .. فضحكت بصوت خشيت أن تسمعه أمى فتقول أننى قد جُننت..

لم تمر ساعتان حتى سمعت رنين هاتفها الذى تركته فى المعطف .. وإذا بها رحمة نعم هى رحمة :

" نعم يا فارس ..أنا رحمة .. لازلت فى المستشفى و لكن إطمئن الحمد لله نجت الأم و نقلوا لها دماء وكذلك الطفلان سوف يتعافيان وقد اصدرت المستشفى قرارا بعلاجهم جميعا على نفقتها و كل ذلك بفضل هذا الضابط الشهم الذى اتصل بالمسئولين و تبعنا إلى هناك ليقوم بهذا العمل النبيل ..

غدا ان شاء الله سوف أتصل بك مرة أخرى لنتفق كيف أستعيد معطفى و تليفونى وأعطيك معطفك !! "

- سوف أنتظرك ..

- لا أعرف كيف أشكرك يا فارس على كل ما فعلته .. "

وكأننا نعرف بعضنا البعض من سنين طويلة ..

- " بل أنا الذى أشكرك يا رحمة على ما فعلتيه ، غدا ستجدين صورك فى الصحف كلها .. اليوم ولد على يديك الكثيرون .. توأمان ، و رجل ، ورواية ... "

قالت لى ربما أطلق عليهما أبوهما إسمى "ليلة ونور " و ضحكت بأدب .. و كأننى أراها أمامى وهى تضحك .. وأكملت ربما كانا " فارس و رحمة !! "

و بدأت أسترخى و أشعر بإجهاد جسدى المنهك وبدأ النوم يداعب جفونى .. لكنى كنت فى شوق ولهفة لأقرأ ما دونته رحمة فى دفترى .. و غيرت ملابسى و أعددت فنجانا من القهوة وجلست أقرأ و أنا أُمنِّى نفسى بالغد وأستعجله لأراها مرة ثانية ..

أسرعت بكل جوارحى .. أمسك بدفترنا .. أتشبث به كمن يتشبث بحياته لأنها خطت به .. كتبت فيه .. أمسكت بدفترى وكأنه يضم قطعة منها .. لمسته بيديها .. أجد رائحة عطرها لاصقة به كنسيم من صبا ربيعى .. و جلست على فراشى مستدفئا أرتشف قهوتى و أقرا بهدوء يغمر نفسى و أنا أرى وجهها الجميل يطل علىّ من بين الصفحات بهاتين العينين العسليتين الهادئتين اللتين لم أرّ مثلهما من قبل وابتسامتها المشرقة رغم حزنها الدفين المحبوس فى عينيها .. وتذكرت وفاءها لوالديها المتوفيين رغم مشاغلها فى القاهرة ..

وتذكرت كيف فشلت فى نومى بالقطار وهى تقرأ و محاولاتى اليائسة .. أراها بين سطورى و أقرا كلماتها وعبارتها فى الصفحة المقابلة وكأن حوار القطار قد إستمر بيننا إلى الآن ولم يحدث ما حدث فى القطار ..تقرأ لى ما كنت أقوله لنفسى وحيدا .. هنا جزء ناقص و لكنها أكملته كأنى أنا من كتبته وليست هى .. وتراقصت كلماتها أمامى باللون الأخضر كأشجار من الجنة .. جنات خضراء .. وكأن تلك الأجزاء الناقصة التى أكملتها .. كانت تنتظرها فى عالم الغيب لتولد على يديها لم تعد روايتى بل أصبحت روايتنا معا ..فما عقمت عنه أنا أنجبته هى !!

تُكمل على لسان بسمة بطلة الرواية المعذبة على يد أبيها يفرقها عن زوجها الحبيب .. تكمل ما لم أكن أعرف كيف أكتبه كأنها هى من تتعذب وليس بسمة .. تراسل غائبا لن يعود .. " أحمد .. أحمد .. لاتتوقف عن الكتابة لى .. كن بخير حبيبى .. أكتب لى ومن أجلى حبيبى " وكأنها تنادينى أنا :

" فارس .. فارس .. أكتب لى حبيبى لاتتوقف عن الكتابة .. اكتب حبيبى .. أكتب لرحمة .. "

و اختلطت روايتنا بنا فلم أعد أعرف نفسى من أحمد .. و صرت لا أعرف بسمة من رحمة كتبنا قصتنا بأيدينا معا .. غريب هذا القدر !!

و لكننى فجأة أفقت من أحلام اليقظة على سؤالى لنفسى :

"من سيف هذا ؟ " الذى كان يكيل لها السباب والشتائم و هى المرأة الرقيقة العذبة .. كانت تستجديه ليرسل سيارة إسعاف لإنقاذ ثلاثة أرواح ورفض بطريقة بذيئة غير إنسانية بالمرة .. من هذا "السيف " ياترى ؟

وقلت لنفسى كان يوما طويلا و غريبا ومثيرا.. وغدا يوم آخر .. و ربما سألتها عن هذا الشخص الغليظ عندما ألقاها .. ربما و ربما .. أه يا رحمة .. ، وُلد على يديك اليوم الخديجان .. لو رأيا وجهك لأول وهلة كما رأيته .. لو نطقا لشكراكِ على جميل صنعك و قلبك الرحيم .. ونمت أُمنِّى نفسى بصباح جديد أرى وجهها فيه ..

الفصل الرابع

استيقظت مبكرا على صوت أمى تنادينى لأتناول الفطور معها و قد جاءتنى بالصحف ..

و بدأت أتناول شايا ساخنا و أنا أتصفح العناوين الرئيسية .. و فجأة لا أعرف كيف قرأت هذا الخبر المفجع بل كان كابوسا مفزعا .. :

" ضابط شرطة يقتل زوجته الطبيبة فى الرابعة فجرا.. أفرغ فى قلبها طلقات مسدسه الميرى .. إثر مشاحنات دارت بينهما .. ذكر الجيران أن القاتل كان دائم الإساءة لزوجته فى مكان عملها وفى المنزل طوال فترة زواجهما منذ ست سنوات .. و أنهم كانوا يخشونه لبطشه و سوء طباعه .. تحفظت الداخلية على الضابط القاتل وعلى سلاح الجريمة .. النيابة تباشر التحقيق.. "

مرّ كل شئ أمامى كحلم فظيع مع صورة رحمة التى نشرتها الصحف وهى ملقاة غارقة فى دمائها فى نفس ردائها الزيتونى ولكن هذه المرة لم يكن هناك خيوطا ذهبية أتبينها ..طُرِّز هذه المرة ووشّى بالدماء .. حتى أننى لم أتبين صورتى أنا بجانب سيارة الإسعاف و النى نشرتها الصحف فى تناقض عجيب ..

و صرخت فى لوعة : " آه يا رحمة لم يقتلك أنت بل قتلنى أنا .. إخترقت رصاصاته قلبى أنا ولستِ أنت .. آه يا رحمة .. و سقطت علىّ الأرض مغشيا على لا أدرِ شيئا من حولى ..

إستنجدت أمى بالجيران لينقلونى إلى المستشفى لأفق من غيبوبتى بعد ساعات فاذا بها نفس المستشفى التى كانت تعمل بها رحمة ..

لفت مظاهر الحزن و الألم كل أرجاء المستشفى و من بها .. الجميع يبكون رحمة .. يذكرونها بكل خير .. أطلقوا عليها الملاك و عرفت من حديثهم عنها سيرة هذا القاتل الفظ المتسلِّط .. وسيرته معها ..

وكانت أشدهم إنهيارا صديقتها الوحيدة دكتورة "إخلاص " والتى أصابها نوبة عميقة من البكاء الهستيرى والنشيج على رحمة ..

لم أنطق بكلمة واحدة أصابنى الذهول و الشتات وأنا أسمع ما يقال عنها .. كانت ملاكا ولم تكن بى حاجة لأسمع فقد رأيت ذلك بعيني ..

أكان يوم أمس بكل أحداثه هو اليوم السعيد الوحيد الذى خرجت به من هذا العالم .. كما خرجت بصورتنا معا ..

يوم قضيناه معا مختزلا فى سويعات سرقناها من عمرنا و من عمر الزمن ..

آه يا رحمة أتيتينى من ذاكرة العشاق التائهين فى دروبهم .. أتيتينى لأتنسم من روحك عذب الألم وأنثره فى الآفاق فيأتي على صوت أنينى و شدوى بحزنى كل جريح تقيَّد بالسهاد ..

وغادرت المستشفى لأحضر جنازتها .. وشيعناها وشيعت روحى معها .. وعرفت قبرها لأزوره كلما إشتقت إليها .. ماتت رحمة لكن روحها عاشت معى ..

ماتت بعد أن ولِدَت على يديها قصتنا ..

مشيت فى جنازتى أنا وليست جنازتها .. رأيت نفسى محمولا .. رأيت أمهات كثيرات ولدن أطفالهن على يديها .. و لم أندهش عندما رأيت مفتش القطار الطيّب ومعظم ركاب القطار يشيعنها معى .. ضابط الجيش الشهم ، و حتى الرجل البدين و المحامى الذى أعطانى روبه ، و النساء اللاتى كن يساعدنها .. الجميع جاءوا يبكونها ...

لم يكن لها والدان ليمشيا فى جنازتها يشيعاها .. رأيت الجميع و كأنهم أهلها و ذووها .. الكل شعر أنها ابنته ..

ولا أنسى كيف تسببت الجنازة فى توقيف طريق الكورنيش وقد تحولت إلى مظاهرة عارمة فى حبك يا رحمة ، هتف فيها الجميع رافعين لافتاتهم للمطالبة بالقصاص من قاتلك .. قاتل الحياة .. فقد أراد الجميع أن يُقتص لك لينال قاتلك جزاء فعلته وقتلك مرارا قبل أن تطالك رصاصاته وتسكن قلبك ..

وقلبى يصرخ .. وداعا رحمة .. جوارحى كلها تناديها .. أين كنت ؟ و من أين جئت؟.. و إلى أين ذهبتى وتركتينى .. ربى .. ربى .. يا الله .. يارب ألهمنى الثبات و افرغ عليا صبرا جميلا .. يارب

و لم أغادر المقابر حتى استودعتها الله .. وعاهدتها أن أحقق رجاءها و أن أظل أكتب .. أكتب لها .. و أول ما اكتبه سأكتب قصتها .. تلك الروح الطاهرة ..

وبدأت أجمع تفاصيل حياتك فزرت صديقتك الحميمة " إخلاص " فى المستشفى ، فعرفتنى . وذكرت لها ماكان بيننا و فوجئت بأنها تعلم كل شئ فقد هاتفتك فرحة مسرورة بعدما حدثتنى وطلبت منك المرور عليها فى المستشفى لترى الخديجين اللذين ولدا على يديها و أعطتك الورقات التى كتبتها عما حدث حتى تستردهن فى الصباح لتضعهن مع بقية مذكراتها.
وأخبرتيها عنى وما كان بيننا فى رحلتها الأخيرة .

لم تكن تأمن لوضع مذكراتها فى بيتها الذى لم يكن ببيت تأمن فيه على حياتها فكيف تأمن على حاجياتها وفضفضتها مع نفسها عن هذا الرجل ، فلا يضع يديه عليها كما وضع يديه على حياتها نفسها .

لم تتوانى " إخلاص " عن إعطائى تلك المذكرات التى حاولت فيها بطبيعتها الهادئة أن تهرب من هذا الواقع المرّ بنفس القلم الأخضر الذى لا تكتب إلا به كما كتبت فى دفترى .

وبدأت أقرأ تحقيقات النيابة التى نشرتها الصحف لتعطينى تفاصيل أخرى كما جاء فى شهادات الجيران وزملاء العمل ...

وتقدمت إخلاص كذلك بشهادتها عن ليلة الحادثة وشهدت بما عرفته من رحمة وتهديد زوجها لها الدائم و فى تلك الليلة .

تقدم الجيران كذلك .. الجميع كانوا ينتظرون فرصة للنطق بكلمة حق فى وجه الباطل .. وكان الثمن موت رحمة ..

ولكنهم لم يذكروا إلا ما سمعوه من مشاجرات على فيها صوت هذا الرجل دائما بالسباب و الإهانة .. لم يعلموا ما علمته من أوراقك عندما قرأت ما سجلتيه بأناملك عن قصة حياتك .. هذا هو الوالد فى ذلك اليوم وقد حاول إقناعك بدراسة الطب ليترك لك عيادتيه فى الإسكندرية

والقاهرة وهو طبيب أمراض النساء المشهور ومرة بعد مرة حبا له وافقت حتى يترك لك ثروته وعيادتيه واسمه وخبرته .. حتى جاء هذا اليوم الذى ذكرتِ :

" ياليته ما جاء عليك أو عشتِ لتحييه " عندما رآكى حموك أبو زوجك القاتل وكان مع زوجته الثانية الشابة لتلد فى عيادة أبيك و لا تعلم زوجته الأولى .. وعلم أنك ابنته .. و أخبر عنك وعن ثرة أبيك ابنه ضابط الشرطة الذى يشبهه فى كل شئ ويفوقه صلفا وسوء اخلاق ووضعا خطة الإستحواذ عليك وعلى الثروة ... ما لبث والدك أن رفض هذه الزيجة و لكن عجبت كيف رضخ فى نهاية الأمر هذا الأب الحنون لضغوط هذين الرجلين .. قرأت السرَّ الذى كشف لك عنه قبل وفاته فقد هدداه بتلويث اسمه و سمعته وإغلاق عيادتيه .. قيل له :

" لن نعدم حيلة فى ذلك .. فبنات الليل تحت أيدينا .. مجرد أن تدعيا إثنتان منهما قيامك بإجراء عمليات إجهاض لهما مقابل ممارسة الفحشاء معهما ... وينتهى أمرك فى النيابة .. والسجن .. والشطب من نقابة الاطباء.. والجامعة ...."

هكذا سوف تنتهى حياة الرجل العصامى الذى بدأ حياته من الصفر بدلا من أن يترك لك ما يؤِّمن مستقبلك فأى إرهاب هذا وأى ترويع ... ليفقد حياته وأسرته و ابنته الوحيدة التى هدد فى حياتها نفسها!!

إنسان له أن يخاف و يحذر المجهول .. لم تطل مقاومته و أنت لا تعلمين ..الأم فقط من كانت تعلم وطالبته بإبلاغ الجهات المسؤولة و لكن اين الدليل وإن حصل عليه فأين ومتى ستكون الإدانة وهما من هما؟!

روِّع الرجل وخضع وأخبرك أنه يرديد أن توافقى على الزواج من رجل من عائلة وضابط شرطه نزيه !

خدعك ليؤمن حياتك فلا يفقدها .. وهكذا لم يكن هناك بُد من الضغط عليك دون أن تعلمى خشيته عليك وعلى ما يريد أن يتركه إليك مع معارضة الام الشديدة التى حاولت إثنائه بكل الطرق وفشلت فحجم الضغوط الفظيعة والتهديدات القذرة كان أكبر من أى رفض ... فتارة بترويع بتلويث اسمه وتارة بإمكانية خطفك بواسطة مشبوه و ... من كان يتحمل هذا الإرهاب الفكرى و النفسى ؟!

وما من دليل يمكن الارتكان إليه وحتى إن وجد كان هناك إستحالة فى الإدانة لمكانة الرجلين فبمجرد الابلاغ كانا سيعلمان بالأمر .. وحاولت الأم أن تدفعه إلى إبلاغ المسئولين .. صرخت به :

" إبلغ حتى النائب العام أو وزير الداخلية .. افعل شيئا .."

فيجيبها :

" إبنتك من ستدفع الثمن لو نفذا تهديداتهما أو لو أبلغنا .. دعينا نحافظ عليها لعلَّ و عسى .. "

وتمت الزيجة المشؤومة ولا تعلمين ما دبر الرجل وابنه .. فشل أن ينسى ما كان منه وسقط الوالد فريسة للمرض كما سقط فريسة وضحية للارهاب النفسى و التهديد الفاجر ..

لم تنس نظرة عيني والديك يوم زفافك كأنهما يسلمانك إلى المنون وليس لزوج .. لم تنسَ دموع والدتك وتلك النظرة الشارده التى علت وجهها .. ولومها الدائم للأب المغلوب على أمره .. حتى

تكاليف الزواج تحملها كلها .. قهر غاشم من تلك الأسرة الجبارة لرجل حمل رسالة الرحمة .. رسالة الطب . بل وأطلق على ابنته اسمها ... رحمة ..

لم يمر عليك يا رحمة يوما سعيدا .. قرأت ألمك فى ذلك اليوم الذى وقع عليك فيه نبأ وفاة أبيك لتواجهى بعده ما لم تواجه فتاة فى برائتك . كنت تخشين هذا اليوم من كثرة تمنى هذا السيف لوفاة أبيك علانية طمعا فى ثروته التى لم يبخل عليه بأى طلب له طلبا لراحتك أنت ، حتى السيارة التى يستقلها اشتراها له .. كان يضغط بك عليه .. يمنعك من الإتصال بهما .. من زيارتهما .. ومع كل هدية جديدة له فالجائزة ان تقضى يوما معهما ..

تحاملت على نفسها ولم يتوقف لها دمعٌ ، ووجدت نفسها وحيدة معه . جرّبت كل الطرق ولم تجدِ معه.. صابرة محتسبة أمرها عند الله ، رغم الأذى الذي يلحقه بها . ودائما يُشهر التهديد في وجهها عندما يحتدِم النقاش بينهما . دائما يقابلها بنظرة فاحصة يفتشها بها تقشعِرّ لها !

هكذا أصبح الوالد المكلوم يشترى ثمن رؤيته لابنته الوحيدة . لم يستطع أن يمنع زواجك لم يستطع أن يوقف نزيف ثروته التى جمعها فى عمره من أجلك .. ولم تستفيدى شيئا .. يقول لزوجته التى تلومه على هذا الخنوع والاستسلام للأمر الواقع :

" ربما يصلح الله حاله ويتقى الله فيها .. ربما ... "

سجلتِ كل ذلك يا رحمة بدموعك لا مداد قلمك.. حتى قبل وفاة والدك بسويعات ، كان شغله الشاغل كيف يحصل على إعلام وراثه لك .. ثم الوكالة عنك ليضع يديه على كل شئ .. كم قاسيت .. كم عانيت حبيبتى .. قتلك ببطء مرات ومرات .. وددت لو حاكموه عن كل يوم أذاقك فيه الألم و الحزن .. رأيت كلماتك تقطر دما و تنزف ألما..

لم يكن لحمل أن يواجه ذئبا .. لم تعهد البلابل أن تواجه الكواسر ..

مات الأب حسرة وكمدا كما سجلتِ أنتِ بيدك إعترافه لك بضعفه وعجزه عن حمايتك قبل أن يموت طالبا منك الصبر و الجلد و الصفح عنه ..

ماهى إلا أشهر قليلة مرَّت حتى تبعته الأم حزنا عليك وعلى حالك . لم تكن تستطيع رؤيتك فقد منعك عنها و منعك عن زيارتها . الثمن لرؤيتها هو توقيعك توكيلا عامل ليتصرف فى إرثك عن والدك لينفق أرصدتك على ملذاته وليبع العيادتين و قطعة الأرض الذى إشتراها الراحل ليقام عليها مستشفى خيرى فلم يكن يكفيه ما يحصل عليه بطرق غير شريفة من إبتزاز و رشوة .. اضطرك للعمل وكان رافضا .. أصبح راتبك فى يديه .. لم تحصلى إلا على الكفاف .. حتى ذكرياتك فى بيت أسرتك باعها ليحرمك من مكان تذهبين إليه .. لم يعرف تلك الشجرة التى تحبينها ولاتلك الشُرفة التى طالما شهدت أمسياتك مع والديك ..

وككل ظلم فلابد له من نهاية . أصيب والد سيف بسرطان الرئتين ليقضى عليه سريعا تاركا الزوجة الشابة التى غرر بها ووليدها ليتنكّر منهما سيف ..

ورغم أنها وحيدة بلا إخوة و لا أخوات فلم تنشأ مدللة فى ترف مادى كبنت وحيدة لها ماترغبه .. ولذلك حاولت الحفاظ على كرامتها التى يهدرها وأنفتها التى يذلها بصمتها معه وعدم ردها وسرعان ما تبينت أن صمتها جعله يتمادى فى جبروته وسلوكه غير السوىّ ..

بل عجبت من نفسها أنها فى إحدى المرات التمست له الأعذار فى كونه ضحية عائلة قبيحة مفككة لا تجمعها مشاعر ولا أواصر سوى المصلحة ..نبتة سوء فى ارض بور خبيثة ولم تثمر إلا نفسية مريضة مشوهة ..

رحمة المهمومة بنفسها وجدت سبيلا واحدة فى التفانى فى خدمة الناس ومدّ يد العون لهم .. عرفت أنه يخفى وراء منصبه كثيرا من القذارة فى تعاملاته مع من حوله . يعمل لمصلحته الشخصية غير عابئ بأحد . ينفق ببذخ على نزواته ولم تكترث بمغامراته النسائية العديدة ونزواته الفاضحة . لم يكن لها رجلا لتحفل به .. لم تحبه لتغار عليه .. لا وّد .. لا إنسجام و لا مودة.. فأية حياة كانت هذه ؟ !

لم يكن هناك شئ يحثها على الإستمرار سوى الأمل فى غد تنفصل فيه عن هذا المريض الذى جعلها حطاما فى ريعان شبابها .. لا هى فتاة فتُرغب ولا إمراة فتُرجى .. فلم يبقها فتاة ولا أصبحت إمرأة !!

تحاول أن تتناسى أنوثتها بالعمل و لا شئ غيره لتعود آخر النهار لتلقى جسدها المنهك على فراش خالٍ .. نست أنها أنثى تحتاج إلى رجل . ألقت بحرمانها وراء ظهرها غير مكترثة بنداء الجسد حتى بهت بريقها وباتت ميتة لا تشعر بشئ .. لا تشعر بالحياة إلا بميلاد طفل على يديها .. لم تحلم أبدا أن تصبح أما من هذا الرجل ..

عاما بعد عام إزداد الوضع سوءا بممارسته سطوته وإرهابه الدائم يتباهى بما يسببه لخصومه فى عمله من أذى، ويسرد ذلك لك حتى يرهبك .. وصل الأمر إلى تهديدك بالقتل أو التشويه و إسماع الجيران وزملاء العمل لسبابه لك وإهانتك .. ومراقبته الدائمة للعصفور حتى لا يهرب من قفصه الذى وضعه يتلذذ بعذابه وسلبه حريته .. و أى عصفور مثلك و أى بلبل كان يشدو بحزنه تنزف ألحانه حزنا و ألما .. سجينا لا ينتظر إفراجا ..

لم تشترِ يارحمة رداءاً واحداً منذ تزوجت وكان هذا الرداء الزيتونى كما سجلتِ .. إشترته له والدتك قبل وفاتها عندما علمت أنك أردتيه و لم تملكى ثمنه بعد أن منعك من التصرف فى أموالك ووضع يديه عليها..

لم يكن ما قرأته من مذكراتك لتنشره وسائل الإعلام التى تابعت القضية .. لم يقرأوا ما قرأته فيها من تفاصيل .. علقت صورتك أمامى .. وقرأت حلمك الأكبر فى الفكاك من هذا السجن على يد فارس أسطورى يخلِّصك مما أنت فيه .. وكيف كتبتى عنى آخر أوراقك .. وما كان هذا الفارس القادم سوى الموت!!

قرأت آخر سطورك :

" إنه هو فارسى .. من كنت أنتظره .. فارسى .. حلمى .. الذى يجب أن اتشجع به كما واجهت معه الخطر فى القطار وولدا الخديجان يجب أن أولد من جديد .. سوف أطلب الطلاق فان لم يفعل هددته بالخُلع و إلا لفضح أمره .."

تُرى هل هذا ما حدث فجر هذه الليلة وكان السبب فى قتلك.. لقد أيَّد الجيران فى شهاداتهم ذلك بما سمعوه من تطاوله عليك وسبابك " لن تخرجى من هنا إلا جثة هامدة .. لا طلاق و لاخُلع يادكتورة.....!! "

وبت لا أعرف نفسى من أحمد الذى يحارب الفساد .. أنا الذى أحارب من أجل أن ينل القاتل جزاءه .. فقدمت للنيابة العامة جزءا من مذكراتها الذى سجلت فيه بخط يدها تهديد سيف لها بالقتل مرارا بل وعلى مسمع من الجيران وزملاء العمل ..

وصرت لا أعرف رحمة من بسمة .. كانتا شبيهتين بين قهر الأب الغاشم والزوج الغادر .. بسمة التى قهرها أباها بقسوته وسطوته ورحمة التى قتلها زوجها المتسلط الأنانى فى كل يوم .. كل منهما تعيش على أمل الخلاص من هذا العذاب وتلك المعاناة .. تحيا على حلم بصباح يأتى فتفكّ هاربة من هذا السجن ..

لاحظت التشابه الكبير بينكما يارحمة .. رحمة المقهورة تحت نير الظلم و مشاعر زوجة أحمد تحت سطوة والدها .. الظلم ظلمة و الظلم نفسه واحدا تعرضتا إليه .. عرفت لماذا وكيف أكملتِ ما كان ناقصا فى قصتى على لسان بسمة ..

الفصل الخامس

تلك قصتك يا رحمة جمعتها سطرا سطر وصفحة صفحة .. علمت لماذ أكملتِ روايتى لقد كنت تتحدثين عن نفسك وعن حلمك .. عن عذابك وآلامك .. وكتبتها و سوف تنشر باسمك أنت لا أنا فلست أقل وفاءً منك..

تبا لك من فظ متكبر غليظ كيف طاوعتك يدك لتقتل البراءة و الطهر .. أتقتل الملائكة .. أتسفك دماءهم ...أقتلتها من أجل الأطفال الذين ولدوا على يديها؟!

.. تنقذ هى الحياة وتكافئها أنت بالموت أيها الغادر .. وتعجبت كيف جمع القدر بين هذا الغليظ "سيف" و بين الرقيقة الحنونة "رحمة" .. ضدان فى الطباع .. ضدان حتى فى الإسم .. هو التناقض بعينه فى أقسى صوره .. فهو التناقض بين الملاك والشيطان ..

كان يكفى ما سمعته بينهما فى الهاتف لأعرف كيف كانت حياتها معه .. إعتبرها جزءا من ممتلكاته وسلطته ليرضي غروره و هو .. القائد الآمر الناهي .. يحاسبها على الدق و الجلل .. على كل صغيرة وكبيرة حتى دمرها بغيرته القاتلة و شكه الدائم .. فقد صوابه .. لم يستطع أن يتخيل فرار خادمه المطيع منه . رأيتُكِ و كُنتِ على شفا الجنون من تصرفاته .. أرادكِ تتنفسين من خلاله .. تعيشين كما يريد هو فقط وليس كما تحبين أنت !

هذا المتسلط الديكتاتور الذى لازمه التكبر كيف مارس القهر والبطش بك يا حبيبتى ؟

كيف تحملتِ كل هذه الغلظة و القسوة ياملاكى الطاهر ؟

كيف تحملتِ التعرض للايذاء منه .. آذاكِ بيديه البطشاء و بلسانه الفتاك و احتجزك رهينة سجنه؟

أكملت قصتها و قصتى التى لم تكتمل على أرض الواقع .. أكملتها من أوراقها التى حصلت عليها من صديقتها المقربة بعد أن أخبرتها بقصتنا .. فقصت علىّ الكثير من مأساة حياتها و أعطتنى أوراقها قائلة :

" أنت أحق بها منى "..

عشت مع الأوراق و عرفت لماذا كانت تحاول أن تنسى حياتها بالكتابة .. عرفت كيف تيتمت و عاشت اليتم ... علمت ماذا كتبت و لمن ... معى معطفها ..وهاتفها .. وأخذت معها روحى..

أنا وحدى من أعرف .. عرفت لماذا كانت تحفظ مقاطع من رواية "أذكرينى" و كأنها تنادينى أنا .. كانت تتنبأ النهاية بروحها الشفافة ..

الحب لغز ليس له تفسير .. الروح يمكن أن تغادرك لأمكنة لا تعرفها ولم تكن زرتها من قبل ، وتطوف بك لترى من تحب و يشعر بك حقيقة لا خيالا أمامه و بجانبه .. فليس هنا للعين أو للقلب شأن فالأرواح جنود.. تتآلف دون أن يرى بعضها البعض ومن أحب بروحه يسلم القلب بعد ذلك و يخشع لهذا الحب .. فيذوب فيه وتتلاشى نفسه .. يتمنى أن يكون النفس الذى يتنفسه او حتى نسمة صبا تمر على ثغرة .. حب الروح ربما يصل لفناء الذات كلية فى الحبيب حتى لا يرى و لا يسمع و لا يفكر إلا به و فيه أينما كان.. حتى لو كان فى جوف ليل سرمدى أبدى ..

أعلم إنك تعلمين لمن كتبت هذه القصة.. ولكنى الى الآن لا أعلم كيف كتبتها .. أمسك بقلمى تسبق دموعى مداده .. تبلل أوراقى .. أحادثك فى عالم الروح ..

فى حياة كل إنسان ما يحيا من أجله خاصة لو كان ملهِما له يضىء له الطريق يمسك بقبس من نور و يسير ورائه و أمامه و إلى جانبه .. و ربما حزن النفس يكون هو هذا النور نفسه نلتمس منه ما ينير جنبات الروح .. أيّا كان سبب الحزن فهو كالنار المتأججة التى تصهر الذهب وتنقيه .. و ربما يكون أفضل ما يقدمه الإنسان فى لحظات حزنه و إنكساره، وقد يخفى عليه حكمة ذلك و هو حزين لكنه سرعان ما يتبين أن هذا الحزن عذاب فى باطنه رحمة أُهديت له لتظل بداخله و لإنه يلجأ إلى الله تعالى فى حزنه وألمه ليربط على قلبه كما ربط على قلب أم موسى لتتحمل فراق وليدها ..

إن كل ما قدمه الأدباء العظام من أعمال خالدة لم يكن عن رفاهية بل كان نتاج معاناة من شقاء وحزن مرَّ بهم .. خلق الله الانسان فى كبد و لا يوجد إنسان لم يمرَّ بما لا ينساه أبدا و يعايشه ليل نهار من تلك اللحظات والعبر بنفس مطمئنة و قلب راضِ بقضاء الله ..

ولا أعرف إن كنت بذلك أحاول أن أخرج من هذا الحزن العاصف و لا أستسلم .. أم أنى أم أشد بقوة رباط قيدى به ..

أبكى و أشعر بدموعى على وجهى .. و لم يخرجنى من حالتى إلا الكتابة .. فهى دواء وعلاج وراحة كبيرة و كأن القلم ينفث همومنا لتمتصها الاوراق بعيدا عنا ..

تأتينى كلماتك بردا وسلاما على قلبى بل تخفف ما ألَّم بى و أحاول و أنا أسترجعها أن أجمع نفسى وشتات قلبى و روحى.. تجيئنى و أنا أكتب شيئا فى جوف الليل لو قرأه أحد ما وسعه إلا أن يبكى .. لن انسى ذلك اليوم و قد ناديتينى بإسمى مجردا فى أسعد يوم شهدته فى حياتى و قد ناديتك باسمك الغالى بحروفه و معناه على قلبى ..

فأين أنت يا رحمة حتى تشاركينى عالمى وهجيع ليلى ..؟

أنظرى.. هذه غرفة مكتبتى خاوية من لمسة يديك لتمنحها الحياة ..

أنظرى.. هذه مكتبتى .. كتبى كانت تنتظر لنقرأها سويا .. لكن قرأتها أرواحنا ..

أنظرى يا رحمة هذه أوراقى لما لا تأتى لترتبيها .. بثيها دفئك لتنطق ..

تصفحى معى .. أرقبينى .. اقرئى لى .. و أقرأ لك ....

لا.. لا .. !! لم يعد هذا قلمى وحدى فأنت تمسكين بأناملى .. تقولين أكتب فارس أكتب !

لا تدعينى يا رحمة .. لا تتركينى بعدما وجدتك .. لاترحلى رحمة ..

ظلى معى حدثينى قولى لى هاهى الكلمات التى تبحث عنها حبيبى .. أهذا المعنى ضائع منك حبيبى .. خذه منى يا فارس .. اكتب حبيبى .. اكتب .. اكتب لأجلى أكتب عنى .. علِّم الناس كيف تحب الأرواح .. أكتب فارس .. أكتب حبيبى .. إياك أن تتوقف .. سأعطيك أقلامى التى لم أكتب بها ... سا أعطيك أوراقى سأعطيك قلبى لتكتب عليه سا أعطيك وجنتى اللتان لم تقبلهما سا أعطيك معانى لم يكتبها أحد.. إنها منى حبيبى فيها روحى .. تركتها لديك . ستحلق بك بعيدا فيقرأها كل قاص و دان .. غاد ورائح..

إجعل كل رجل يقول يا ليتنى أنا من كتبت هذا .. أنت قريب منى بدون أن تأتى لزيارتى.. إطمئن ياغالى.. ستكون روحى معك ..

شمس فى حياتى لا تغيب وتلهمنى ما أكتب من وراء الأفق و حتى لو حجبتها الغيوب فهى تشع وترسل لى نورها أستدفء به فى قلبى و وجدانى .. ولو لم أرها ابدا ترسل لى نورها أستدفء به فى قلبى ووجدانى ..

أنظرى يا رحمة ماذا كتبت الآن و لم أكمله وها أنتى تقرأينه معى تكملينه لى كأول من يقرأ هذا ..كأنى بك تحضرين لحظات مخاض تلك الرواية .. كيف أمنع نفسى عن هذا البواح و نزيف القلم و معه نزف روحى تنسكب مع كلماتها هكذا دون رادع يكبح القلم أو يكسره ..

نعم كما إختار لك الله هذا الإسم بمعناه إختار لى هذا الألم لأكتب كالنار تخرج الذهب وتسبكه و أنا أعلم أن الأعمال التى خلدت هى نتيجة الألم و الحزن لأنها كانت بصدق و ليست عن خيال لم يقرأ أحد مثلى .

أقول لنفسى هذا لأعزى نفسى به و سلوى لروحى و ليس كلمات فقط .. .. كتبوا بأقلامهم آلامهم و تواروا وراء ما كتبوه و نفثوا عن أنفسهم هذا الحزن الذى ران على القلب وسكنه ..

أهكذا يمضي بي أجل العمر و أنا وحدي .. تأتين بعد إنتظار و ترحلين بلا موعد ..؟

أهكذا ألتقيك في زحمة العمر ثم أفقدك فتتلاشى خطواتى بدونك أنت أيتها الروح .. يا من سكنت قلبى و لم تفارقيه ؟

أنسج معك أجمل حكاية حب ثم تنتهي الحكاية بمأساة ؟

أخبئ عمري في قلبك و أملأ حقائبك بأحلامى فترحلين ؟

أعود إلى فراشى آخر الليل فأبكي نفسى وأبكيك.. أصبت بحزن أكبر من تستوعبه أوراقي يخيفنى الألم فلم يعد لدي من أكتب من أجله إلا أنت ليتناقل الناس قصتك تشجيهم .

لن أنزفك عند رحيلك .. فقد أصبحت دمي الذي أعيش به .. صرت عينيي اللتين أرى بهما .. هوائي الذي أتنفسه .. أغمض عينيا فأراكِ .. أخلو بنفسي فأراكِ .. ألهث وراء ذكراكى لأجمع بقايا نفسى خلفك لا أحد يشاركنى صمتى و وحدتى إلا أنت فيسكن الألم .. أصبحت مثل مالك الحزين يغني أجمل ألحانه بألم و حزن و هو ينزف ..كيف افتح نوافذى للربيع لترى بلابلك وقد عادت تغني تقف على أطلال نفسى وأوراقى التي تغير لونها بعدما رويتها بحزنك فلا أجد فيها غير وحشة تملأ قلبى و وجدانى ..

فلتكتب ياقلم و تدون صرختى فلم أجد غيرك فى وحدتى .. سوف أرسم وجهك بكلماتى .. سأكتب فيصلك صوتي .. سأشد الرحال إليك عند حنينى .. سأصرخ حتى لو لفظت أنفاسي لأراكى .. و ربما أموت فيصلك نبأ من عاش مكلوما بعدك .. الحب بالنسبة لى أسطورة لم أعرف فيها إلا ألمى ببقايا قلب منثور بين كلماتك .. فمازال قلبى بحبك يشدو لحن الحزن .. لم ألوح لك مودعا يا رحمة

طيفك يمزق قلبى .. فأصبحتً خلفه أنا طيفاً ..!!

سأموت أنا و تحيين أنت ..!!

دمعت عيناي و أنا اقرأ قصتنا كما دمعت و أنا أكتب لك و فاضت دموعي و أنا اقرأ .. أشعر إنني فعلت شيئا ويكفيني أنك كسرت قيودى و أخرجت قصتك للحياه .. يكفيني إننى أصبحت أكتب هذا عنك وإليك .. لهذه الروح .. كتبنا تتمة قصتنا .. كتبناها سويا..

" رحمة كنت أود أن أخبرك أننى توقفت فى الطريق و بحثت عن أوراق و قلم وعبرت إلى الشاطئ وجلست وحيدا لأكتب . ولا أعرف كم ظللت هناك وكتبت مالم أكتب من قبل مع ذاك النور وأشفق على من سوف يقرأ الباقى منها و إلى الآن أتردد فى نشرها يا رحمة .."

إنهم لن يعلموا أنها أقرب إلى الحقيقة منها إلى الخيال ففيها روحى و فيها روح من ألهمتنى إياها توأمى من سجنتى بكلماتها عندما قرأتها .. بكيت على ألمها كما أبكى على حزنى ، ألمى .. أغرب ماكتبت من شئ .. إستغرقنى فكرتها طوال الليل والنهار أكاد أرى كل كلمة فيها قبل أن أكتبها سبحان من أودع فيا تلك المعانى وتطويع حروف الكلمات هكذا .. فكنتى أنت من ألهمتنى إياها تقفزين فى رأسى . وتتتبوأين قلبى تُملين عليَّا ما لا أهتدى إليه لا اعرف ماذا أقول ولكن الإلهام أمر عجيب لم أعرفه من قبل .. نسيج من عالم لا أراه إلا بروحى . من المؤكد أن كل من كتب شيئا كُتب له الخلود كان ورائه شئ كهذا ولايعرف الناس بأمره و سره لانه لم يخبرهم و لم يفكر أن يخبرهم ..

كنت أسمع و أقرأ أن كل أديب له ملهمته و لم يكن لى ملهمة من قبل سوى من بنات أفكارى و لكن الله وهبنى ما أحمده عليه فكأن لى و أنا أكتب أكتب لها وحدها .. فقد كنت اتسائل كيف يؤثر فيا ما أقرأ لبلزاك .. ديكنز .. تولستوى .. مكسيم .. تشيكوف ..كافكا ، و هيمنجواى وغيرهم ؟

كيف جاءوا بهذه المعانى ؟ أهى القراء و الموهبة أم الجنون أم إلهام ؟

شئ غريب هذا الإلهام و لو جلست لأفكر قبل أن أكتب ما كتبت حرفا واحدا منه أبدا .. وكل هذا لايساوى اللحظات التى كتبت فيها وما أكتبه ..

نعم أنتِ ملهمتى .. و بصيص النور في حياتى .. ربما تكون هى قصتى و لا أعرف .. ربما تأخذ من روحى و لذلك سوف تعيش من بعدى هذه القصة ولولا أنت ما كنت سوف أكتب مرة ثانية لأحد .. وكأن بى لم أكتب من قبل كلمة واحدة .. سوف تظلين أغلى شئ على نفسى و لا يعلم أحد بذلك الا الله ثم من كتبتها إليها ..ستعيش كما عاشت من قبلها قصص كتيرة كتبت من أرواح أصحابها و من دمائهم و قلوبهم .. ستعيش لما بها من مشاعر صادقه.. ستعيش لأنها منك و إليك ..

ولم يكن لى شئ من ذلك صرتُ أعى هذا الآن جيدا .. أشعر به فى كيانى يزلزل كل شئ أتألم به كأنى فى مخاض . ولا أستريح حتى يعاودنى ألم الكتابة .. أتحدث الآن لنفسى فقط كأنى أكمل شيئا كان ينقصنى فى القصة .. سبحانك ربى أيمكن ان يكون كل هذا خيال؟ فاستغرق فى فكرة قصة رابطا بين العام والخاص النفس والروح حتى الموت والحياة بطريقة اكاد اجزم أنى لم اقرأها من قبل . لقد أعدت قراءة ما كتبت فى الجزء الأخير منها فلم أصدق نفسى فتلك الجملة أقامتنى فى هجيع الليل تطاردنى كوحش كاسر يريد أن يروده أحد فروَّدته فكتبتها .

و هذا سطر لم أكمل طريقى ، فتوقفت وكتبته .. وهذه صفحة كاملة كتبتها أسرع من البرق كأن شيطانا يطاردنى ليخطفنى فخطفته أنا ، فأي شئ يكون هذا ؟ وماذا أسميه ؟

الكتابة جنون و ألم ولا أستطيع أن أتوقف تتداعى الكلمات تنزف ألما أو ينسكب معها شهدٌ من الروح . ولماذا أكتب الآن ؟

أبوح مع نفسى أم لأشرح لنفسى كيف أكتب أم هى تلك القصة التى أتتنى من عالم آخر من علم الغيب . جعلتنى أترك كل شئ زاهدا فى كل شئ حتى نفسى .. تركتها لها أتألم فأكتب ..

وما أهميتها أنا لا أريد أن تخلد إسمى .. و لكن تخلد معنى الوجود والتضحية تخلد الروح و لا شئ سواها ولو افلحت فى هذا تكون قد أفلحت من الهمتنى .. أنت يا رحمة . . فأنت الإ لهام و أتردد حتى لا تؤلم روح من تعلق بها و لكنها اشياء لم أتحكم بها ومعانى كتبت نفسها ولم أكتبها أو يكتبها قلمى .

ولو بقيت هكذا اكتب فيها و ظللت ممسكا بقلمى ما كان لى على روحى من سلطان .. تغادرنى إلى حيث لا أعلم .

أى شئ ذلك احتاج لأقرا كيف يكون هذا ؟

ولا أعرف أفسر العلم هذا الأمر أم لا ؟

الكتابة هكذا ليست جنون و ألم فحسب و لكن مرض قد يود أن يبحث عنه كل من يمسك بالقلم وللأسف لا يجد هذا المرض ويفقده حينما يمسك به فهل فعلا كتابتى لهذه القصة مرض اصبت به وليس له ترياق أم لن يستمر معى .. لا أعرف وما زلت أكتب لنفسى .. و أحادثها.

آن لى أن أتوقف عن الكتابة لنفسى هذه السطور الغريبة التى كتبتها فى لحظة من جنون الكتابة فى جوف الليل وحيدا مع قطار يسير و يسير بى معه من يراه من الخارج لن يعرف مافيه و حتى أنا لا أعرف كيف ستكون نهاية رحلته التى بدأت بالهام ولاتريد أن تنتهى ..

وحتى السطور التى وضعتها على لسان البطل عن قطار الساعة الثانية عشرة و أغنيته .. كلها أشياء جنونية أتذكر أمنية فاكتب بسببها قصة قد تخلد من بعدى و لا يعرف الناس لمن كانت أو من ألهمنى إياها وربما وضعت هذه السطور فى القصة نفسها على لسان البطل كنوع من البوح ولعلى لا أفعل..

أين تسير بى تلك القصة كما سارت بى أخواتها من قبل وأبطالهم .. لم يكونوا مثل رحمة النابضة بالحياة بكل ما فيها ، فهى رحمة جاءت من الله لتلهم بطل القصة و يولد على يديها فى القطار ما لم يكن من قبل .. آه من قطار سار بحياتى ولم يستقله من أراد .. و ربما كانت رحلته قد تحققت أتخيله نائما على كتفي أحاوطه بذراعى وتكتنفه روحى .. قصة القطار وما حدث فيه تراها كانت قصة من تمنى أن يستقله أم قصتى أم قصة الرواية التى كشفت عنها أحداثها .. إنها متعة ألم الكتابة عندما نكتب لمن نحب وعمن أحببنا حتى لو رحلوا بعيدا عنا ..

من العذاب أن أكتب لمن لا يقرأ لى و ان تنتظر من لا يأتى الي .. لم ينساكِ قلبي وقد حفر اسمك عليه .. إشتقت إليك حبيبتي .. إشتقت لسماع همساتك الرقيقة وصوتك الندى العذب .. في يقظتى وفي حلمي .. ولعلنى فى حلم فاغمض طرفا وما أكد إلا أن افتحه إلا و أنت أمامى حبيبتى تلمسين قلبى وروحى ..

فلا أصدم فجاة بالموت ذلك الخبر المشئوم .. أوبإحساس قاتل بخطر داهم يؤذى المشاعر...بل وقتل ببطء ..عذاب حياة لا تداويه الايام ... جروح غائرة فى القلب و الوجدان ...

أصبحت بلبلا رحل حزينا .. ترنم ترنيمته الأخيرة .. وكأنى بك وبقصتك كليل ألقى درعته هناك بطرف بستان ناءٍ و قد أوشك النهار على حمل مفاتحه مغادرا لينسلخ عنه الليل قادما بطهور من تسبيح النجوم ، ليشهد عنفوان الموت .

هناك ، على شجرة كافور باسقة ، تحنو عليه أغصانها ، وقد رقد يشدو بترنيمته الأخيرة التى لم يترك له سِفرا تنسخ منه ألحانها .. هناك متوارياً مع حزنه وحيدا .. منزويا .. البلبل يترنم .. سمعته .. طربت لحزنه البلابل .. يسمعها الإنس والجنّ فى كل فج ، فشَدت معه من الألم . سمعته الطير على أغصانها .. جاءته سعيا تبكى حاله.. من كل حدب إلى شجرته تنسل .. لن يسابقها فى غسق ولا فجر .. لن يصّفَ معها جناحاً أو يقبضه بعد اليوم . حفظت ترنيمته تهتف باسمه أسطوريا .. لم يُنقش على غرابيب سود أو حمر . وقد ذاقت عسيلته وعاقرتها شجرة الكافور.. سكرت من شدوه .. إحتضنته .. تخضبت بدمه .. عانقت السرَّ فى موته .. لم تدرِ سبباً لما كان من نزف حروفه بين السطور ... لم تستطع لها تأويلا يوشمها بذلّ و إثم ..

نزف المعنى بعنف وما كان بالبلبل من جرح أو كلِم . لمْ تمّل الطير تسائل الغادي والرَّائح و وحش البريّة عن سره .. وكل من سمع ترنيمته الأخيرة و من كان ليس به ذاك اليوم من صمم . فتشت عشَّه .. جمعت بقايا أنفاسه لعلَّها تخبرها أو تجد صدى من صوته يهبها عذب اللحن يجعلها تُطرب الغريب .. و تُنبت الفيافى بذكراه ، ترويها غدران وعيون لم تنم .

ودَّعته الأشجار بحفيفها .. سادلة ظلالها حانية تُخفيه . ما كان للبلبل من شاهد قبر .. فى عشه مات شادياً بالصمت .. منه تسمع الطير عذب الألم .. نبتت عليه شجرة لا تورقُ إلا من شَهْد رُفات بلبل قد أجهز عليه العشق أو من قتله الصمت !!

لم ترحل ذكرى البلبل دون لحن حزين يصاحب رحيله و يتردد صداه بلون سماوى لا يعرفه كون يسبح فى ليل سرمدى . وضع بنفسه ترنيمته الأخيرة تشدو بها الطير من بعده دون قراءة ما كتب على شاهد قبر لا يستطيعون زيارته فى أعماق طيف لا يعرفون له سبيلا . فلا عرفت الطير سبب موته ولا عرفت أين قبره الذى بات أسطورة مأسورة بطول إنتظار تتوق لمن يخرجها من بين سطور تاريخ تثمل بخمر شهده .. تسامر نجوم ساهرات .. تترنم بذكرى بلبل مات حزينا

الآن روحى هى التى تكتب وليس قلمى .. قدر الله لى لتتغير كتاباتى بل و لأعيش طيفا ..و أحرم رؤيتك مرة ثانية .. أعلم أن فى هذا قضاء نحبى .. لاأعلم كيف أكتب اليك وعنك كل هذا ولايعرف قلمى ألا يكتب الا عنك ما لا استطيع ان انطق به أو نطقت به من قبل ..أشياء كثيرة تتنازعنى وودت لو قلت لك أشياء كثيرة بمجرد أن تأتى صورتك أمامى لا أشعر بنفسى ..لا أتحكم فى قلم ولا أنامل حتى حروف اسمك تطاردنى لاكتبها .. رحمة

معذرة عن كل كلمة ألم كتبتها رغما عنى فقرأتيها و ذكرتك بآلامك .. وأسف عن أى عبارة تسببت فى حزنك و ذكرتك بمحنتك .. لا أعرف كيف مرت عليا الساعتين حتى سمعت صوتك .. كنت أموت شوقا إليك فى فى كل لحظة تمر .. كاد الجنون يصيبنى من مجرد ساعتين .. حبيبتى أهذا شئ كُتب لى أم على ؟

كنت أكتب كل كلمة و كأنى أتنبأ بما سوف يحدث لى .. شئ غريب لا يمكن تخيله ..

فشلت أن أكتب نفسى و أكتب عنك أنت .. نادما على كل يوم لم أرك فيه و على عمر لم أحياه معك .. وعلى قدر لم يجمعنى بك . ليتنى هجرت الكتابة و لم أكتب ما يأخذني لكون مجهول و يتركني هناك وحيدا.. ليتنى ما تنبأت بك و بقصتك التى أكتبها على جدران قلبى قبل أن يقرأها

أحد .. لا تقرأين ما أكتبه عنك الآن ولكنك معى ترينى و أنا أكتب ما لم أكتبه من قبل .. لاأدرى بنفسى و لا أعرف فرقا ما بين ليل و نهار لأحقق أمنيتك .. وليبقى ما اكتبه لك وحدك .. لاكتم صرختى .. لو كنت رأيتك فى حلم مرة كنت لأصبر به وأبقى عليه الباقى من عمرى حتى قابلتك ذلك اليوم.

افتقدك كثيرا جدا حبيبتى .. رحمة رحمة اين أنت يا رحمة .. يا حبيبة القلب .. الأرض لم تعد أرضا لك ولا السماء تظلك ولكن وطنك قلبى .. أسكنى فيه فهذا ليلى يناديكى يا مهجة الروح .. تعالى رحمة فليلى لم يعد ليلى .. أنا لم اعد أنا .. أين أنت ؟

قرأت الرواية بعدما أنهيتها فوجدت بها فارس ورحمة .. أحمد و بسمة .. والدىّ رحمة .. والد سيف .. سيف نفسه .. رأيت الامور كلها مختلطة و التفاصيل ممتزجة متداخلة .. لم أرتب لها شيئا .. القدر هو الذى ربط بينها وجمعها . ولم يكن قلمى ولا قلم رحمة .. قصة كل منا كانت جزءاً من قصة الآخر لا يمكن رؤيتها بدونها .. تلتصق بها .. لم أكتب ما أردت أو أريد و لكن كتبت ما كان ..

تعلمت مما كان من رحمة فى القطار ألا أعجز عن شئ ، فليس هناك مستحيلا مع الإرادة .. لم أتوقع أن تأخذنى هذة الرحلة بعيدا هكذا .. و ربما لن أستقل القطار مرة أخرى لأن رحمة ليست به .. و لن ترافقنى كما لم يرافقنى هذا الذى تمنى أن يقوم رحلة بالقطار .. و تطاردنى كلماتك :

" اكتب فارس .. " " أكتب حبيبى لا تخشى شيئا بعد اليوم .. أخبرنى .. أخبرهم .. اسحرهم .. اجعل كل إمرإة تقول ليتنى أحببت هذا فيكتب عنى .. اجعلهن يشعرن أن روحى باقية فيك .. اكتب حبيبى ..أكتب.. "

لبيك حبيبتى .. و هذا إليك و عنك ..كتبته ياحبيبة القلب .. كتبته بدمى و دموعى .. لم يعاندنى قلمى هذه المرة .. كتبت مكان لمسة يديك على ورقى يارحمة .. كتبت يا رحمة ..

تـمـت

د . خالد العرفي

شبكة روايتي الثقافية

www.rewity.com

للمزيد من الكتب المتميزة والحصرية :

/http://www.rewity.com/vb